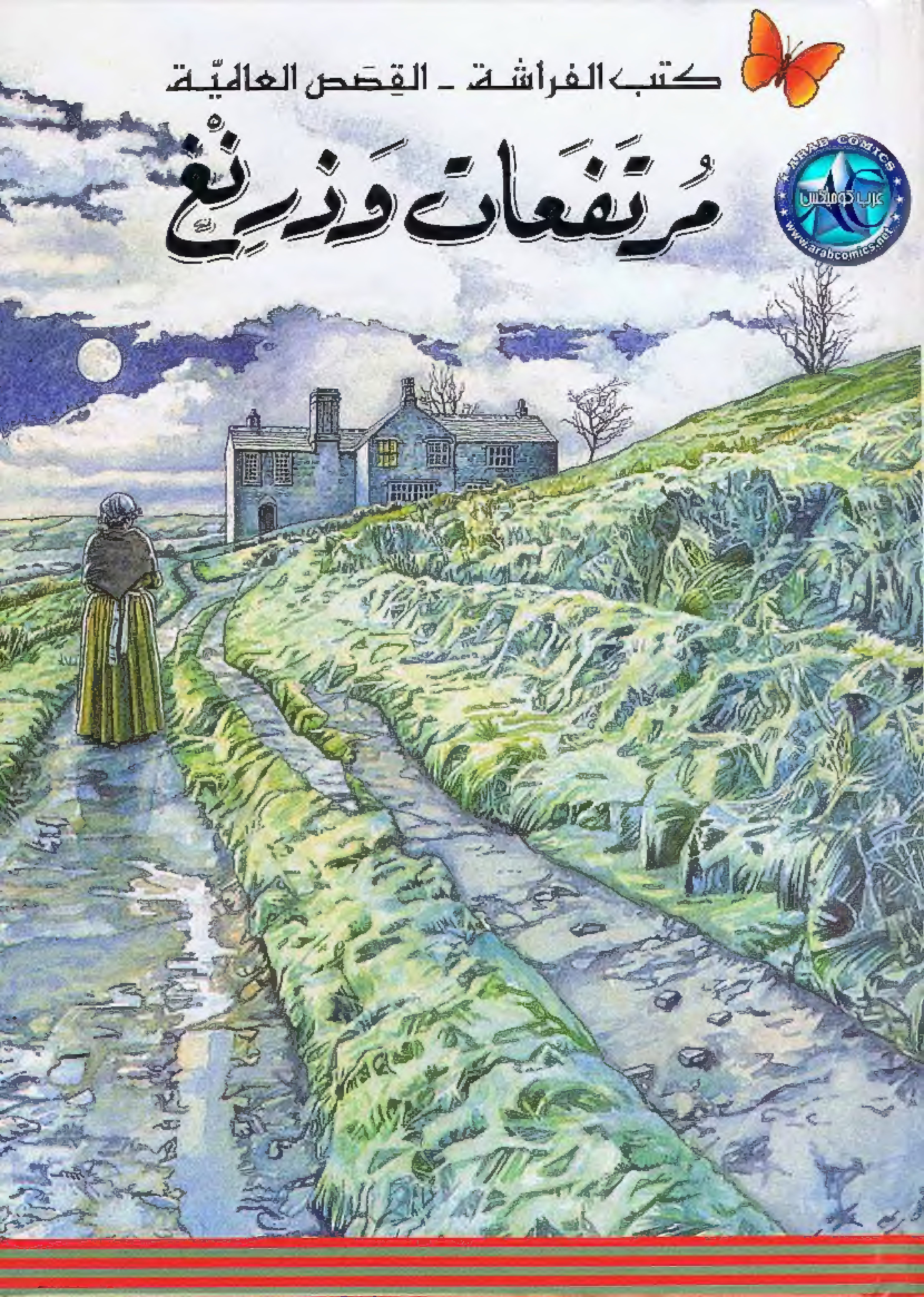

كتب الفراشة - القصص العالميّة
مُرتَفَعاتَ وَذرِنْغ
عرب كوميكس
ARAB COMICS
www.arabcomics.net

كتب الفراشة - القصص العالميّة

مُرتفَعَات وَذِرِنْغ



تَأليف : إميلي برونْتي
تَرجَمَة : هَاني تَابري



مَكتَبة لبْنَان نَاشِرُون

مَكتبة لبنان ناشِرُون ش.م.ل
زقاق البلاط - ص.ب: ٩٢٣٢-١١
بيروت - لبنان
وكلاء وموزّعون في جميع أنحاء العالم

الطبعة الأولى ١٩٩٦
رقم الكتاب 01 C 196829
طُبِعَ في لبنان



مقدّمة

نُشِرَتْ رِوايَةُ «مُرْتَفَعات وذرِنْغ» عامَ ١٨٤٧، وهِيَ تُعَدُّ مِنْ أَشْهَرِ المُؤَلَّفاتِ القَصَصِيَّةِ الرّومَنْسِيَّةِ في العَصْرِ الفِكْتورِيِّ في إِنْكِلْترا (النِّصْف الثّاني مِن القَرْن التّاسِعَ عَشَرَ). ومَعَ أَنَّها الرِّوايَةُ الوَحيدَةُ الّتي أَلَّفَتْها إميلي برونْتي فَقَدْ أَكْسَبَتْها مَكانَةً مَرْموقَةً في الأَدَبِ الإِنكليزِيِّ.

تَرْوي لَنا إميلي برونْتي القِصَّةَ عَلى لِسانِ اثْنَيْنِ عايَشا أَحْداثَها، هُما: السَّيِّدُ لوكْوُد الّذي جاءَ إِلى مِنْطَقَةِ يوركْشِر واسْتَأْجَرَ «ثراش غرانْج» (مَنْزِل عائِلَة لِنْتون) والسَّيِّدَةُ إيلين دين مُدَبِّرَةُ المَنْزِل الّتي كانَتْ تَعْمَلُ سابِقًا في «مُرْتَفَعاتِ وذرِنْغ» (مَنْزِل عائِلَة أرنْشو).

تَمُرُّ في القِصَّةِ عِدَّةُ أَجْيالٍ مِنْ عائِلَتَيْ أرنْشو ولِنْتون يَتَحَكَّمُ بِهِمْ هيثْكْلِف، وهُوَ الشَّخْصِيَّةُ الرَّئيسَةُ في الرِّوايَةِ. وهيثْكْلِف هٰذا غَجَرِيٌّ يَتيمٌ وَجَدَهُ السَّيِّدُ أرنْشو طِفْلًا تائِهًا في شَوارِعِ ليفَرْبول، فَأَشْفَقَ عَلَيْهِ وأَحْضَرَهُ لِيَعيشَ مَعَ العائِلَةِ. كانَ هيثْكْلِف أُمِّيًّا فَظًّا، وبِالرَّغْمِ مِنْ ذٰلِكَ كانَ رومَنْسِيًّا حادَّ العَواطِفِ، وقَدْ وَقَعَ في حُبِّ كاثْرين ابْنَةِ السَّيِّدِ أرنْشو. بادَلَتْهُ كاثْرين الحُبَّ مِنْ أَعْماقِها، ولٰكِنَّها وَجَدَتِ الزَّواجَ مِنْهُ مُسْتَحيلًا نَظَرًا لِطَبْعِهِ

العَنيفِ وأَصْلِهِ الوَضيعِ، لِذٰلِكَ رَحَلَ هيثكْلِف عَنِ المِنْطَقَةِ وعادَ بَعْدَ سَنَواتٍ لِيَجِدَ أَنَّ حَبيبَتَهُ قَدْ تَزَوَّجَتْ مِنَ السَّيِّدِ إِدْغار لِنْتون بِالرَّغْمِ مِنْ فُتورِ عاطِفَتِها نَحْوَهُ.

هُنا انْقَلَبَتْ قُوَّةُ العاطِفَةِ الجَيّاشَةِ لَدى هيثكْلِف إِلى طاقَةٍ مُسْتَعِرَةٍ لِلثَّأْرِ والانْتِقامِ، وتَحَوَّلَ الكِتابُ مِنْ قِصَّةِ حُبٍّ رومَنْسِيٍّ عَميقٍ إِلى مَأْساةٍ مُدَمِّرَةٍ. بَقِيَ هيثكْلِف في مُرْتَفَعاتِ وذِرِنْغ وشَرَعَ يُخَطِّطُ ويَعْمَلُ: بَدَأَ بِإيزابِلّا لِنْتون شَقيقَةِ إِدْغار، فَأَوْقَعَها في حُبِّهِ وحَمَلَها عَلى الفِرارِ مِنْ بَيْتِ أَهْلِها والزَّواجِ بِهِ. ثُمَّ تَتالَتْ مَساعيهِ فَطالَتْ حَبائِلُ مَكائِدِهِ أَهْلَ مُرْتَفَعاتِ وذِرِنْغ وثْراش غْرانْج وأَبْناءَهُما وحَتّى العامِلينَ في البَيْتَيْنِ.

كانَ لِمُرْتَفَعاتِ وذِرِنْغ صَدًى غَريبٌ لَدى ظُهورِها، فَقَدْ أَذْهَلَتْ إِميلي برونْتي مُعاصِريها بِجَوِّ الكِتابِ القاتِمِ ووَقائِعِهِ المُثيرَةِ. والحَقيقَةُ أَنَّ الرِّوايَةَ تَأْسِرُ القارِئَ وتُحَرِّكُ عَواطِفَهُ مِنْ دونِ الإِسْرافِ في تَفاصيلِ الأَحْداثِ الميلودرامِيَّةِ. إِنَّها قِصَّةُ حُبٍّ مَأْساوِيٍّ جارِفٍ حُبِكَتْ بِأُسْلوبٍ جَذّابٍ.

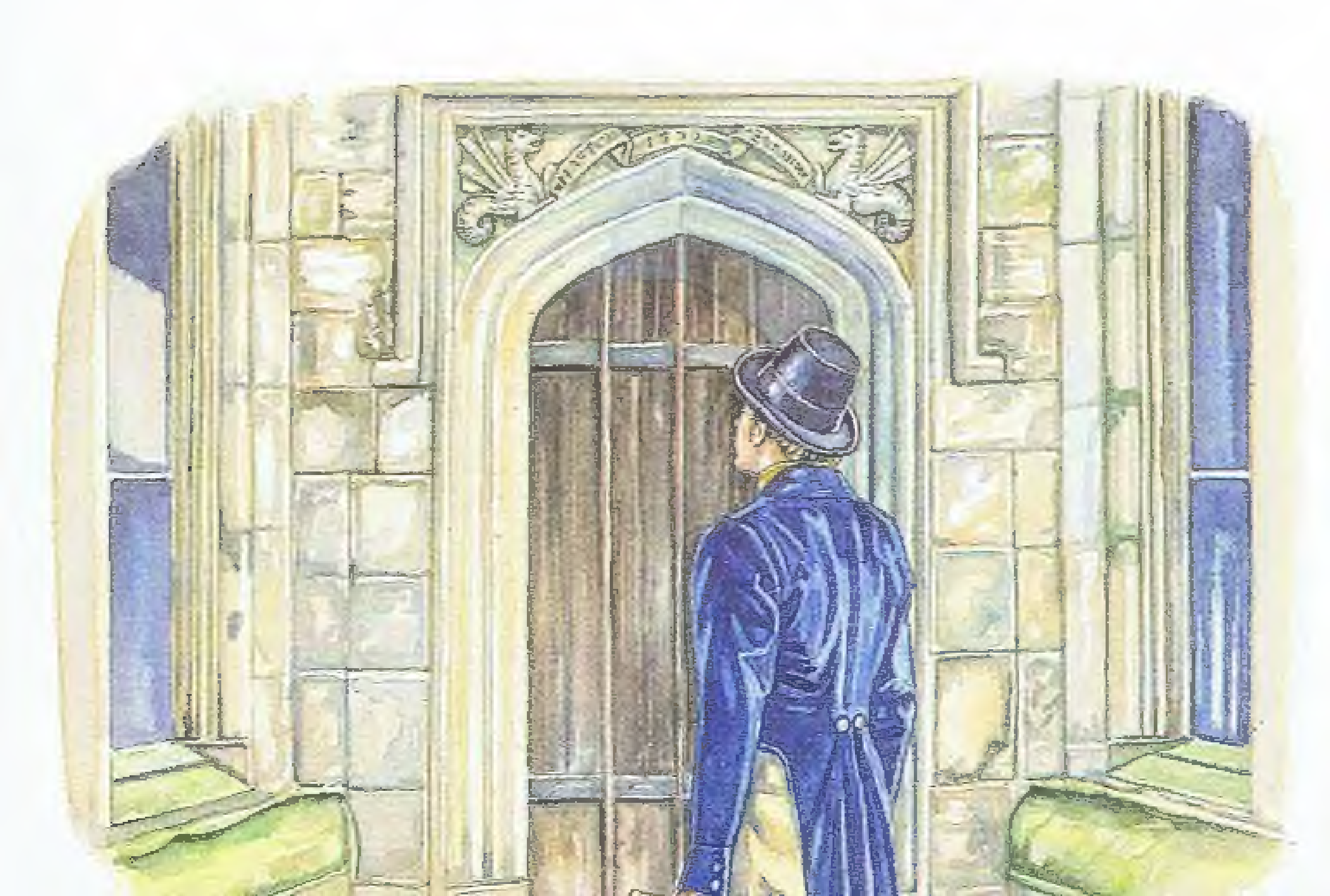


مُرتفعَات وَذرِنـْغ

السَّيِّد لوكُوُد يَرْوي

في شَهْرِ تِشْرينَ الثّاني (نوفمبر) مِنَ العامِ ١٨٠١، أَرَدْتُ الانْعِتاقَ مِنْ صَخَبِ الحَياةِ في لَنْدن، ونَشَدْتُ الرّاحَةَ في جُرودِ يُورْكْشِر. لِذٰلِكَ اسْتَأْجَرْتُ «تراش غرانْج»، وهُوَ مَنْزِلٌ ريفِيٌّ واسِعُ الأَرْجاءِ فَخْمُ الأَثاثِ، يَقَعُ في مِنْطَقَةٍ نائِيَةٍ وتُحيطُ بِهِ حَديقَةٌ وبَساتينُ مُسَوَّرَةٌ. ولَعَلَّ أَهَمَّ مُمَيِّزاتِ تراش غرانْج وُجودُ مُدَبِّرَةِ المَنْزِلِ السَّيِّدَةِ إيلين دِين، وهِيَ تَعيشُ في تِلْكَ المِنْطَقَةِ مُنْذُ صِغَرِها.

أَمّا المالِكُ فَهُوَ السَّيِّدُ هيثْكْلِف الّذي يَقْطُنُ على مَسافَةِ أَرْبَعَةِ أَمْيالٍ في مَزْرَعَةٍ تُسَمّى «مُرْتَفَعاتِ وذرِنْغ». وتَقَعُ «مُرْتَفَعاتُ وذرِنْغ» في مِنْطَقَةٍ جَرْداءَ مَكْشوفَةٍ، حَتّى إِنَّ ما يُحيطُ بِها مِنْ أَشْجارِ الشُّوحِ والزُّعْرورِ لا يَحْميها لأَنَّ هٰذِهِ الأَشْجارَ قَدِ انْحَنَتْ وتَعَرَّتْ رُؤوسُها بِسَبَبِ الرِّياحِ الشَّمالِيَّةِ. والبَيْتُ يُشْبِهُ القَلْعَةَ بِجُدْرانِهِ المَتينَةِ ونَوافِذِهِ الضَّيِّقَةِ وأَحْجارِ الدَّعْمِ النّاتِئَةِ عِنْدَ الزَّوايا. وهُناكَ، حَوْلَ المَدْخَلِ الرَّئيسِيِّ، نُقوشٌ غَريبَةٌ نافِرَةٌ، حُفِرَ في أَعْلاها «هيرْتون أرنْشو - ١٥٠٠».





لِقاء هيثْكْلِف

كانَتْ زِيارَتي الأُولى لِلتَّعَرُّفِ إلى هيثْكْلِف، وقَدِ اسْتَقْبَلَني بِنَفْسِهِ لٰكِنْ مِنْ دونِ أَنْ يُصافِحَني. قالَ وأَسْنانُهُ مُطْبَقَةٌ: «أُدْخُلْ»، فَتَبِعْتُهُ إلى غُرْفَةِ الجُلوسِ. لاحَظْتُ أَنَّ المَوْقِدَ كَبيرٌ والسَّقْفَ خَشَبِيٌّ والأَرْضَ حَجَرِيَّةٌ بَيْضاءُ، وكانَ في الحُجْرَةِ خِزانَةٌ كَبيرَةٌ مِنْ خَشَبِ السِّنْدِيانِ مَليئَةٌ بِالصُّحونِ المَعْدِنِيَّةِ والأَباريقِ الفِضِّيَّةِ. كانَ البَيْتُ تابِعًا لِمَزْرَعَةٍ جَبَلِيَّةٍ وتَنْقُصُهُ وَسائِلُ الرّاحَةِ والرَّفاهَةِ.

لَمّا دَخَلَ مُضيفي أَمامي أَخَذَ يَرْفُسُ جانِبًا أَكْثَرَ مِنْ سِتَّةِ كِلابٍ وجِراءٍ شَرِسَةِ الهَيْئَةِ، ثُمَّ نادى خادِمَهُ قائِلًا: «جوزف، أَحْضِرْ لَنا الشَّرابَ، واعْتَنِ بِجَوادِ السَّيِّدِ لوكْوُد.» دَخَلَ الخادِمُ مُتَذَمِّرًا وهُوَ يَحْمِلُ الصِّينِيَّةَ بِيَدِهِ، ورَأَيْتُ أَنَّهُ غَريبُ الأَطْوارِ كَسَيِّدِهِ. كانَ الخادِمَ الوَحيدَ في المَنْزِلِ بِالإِضافَةِ إلى زيلّا البَدينَةِ مُدَبِّرَةِ المَنْزِلِ.

وَلَمْ يَتَكَرَّمِ السَّيِّدُ هيثكْلِف بِمُخاطَبَتي إلّا عِنْدَما رَآني أُحاوِلُ مُداعَبَةَ واحِدٍ مِنَ الكِلابِ، فَقالَ: «يُسْتَحْسَنُ أَلّا تَمَسَّ الكِلابَ، لِأَنَّها لَيْسَتْ لَطيفَةً.»

كانَ هيثكْلِف في حَوالَى الأَرْبَعينَ، شَديدَ السُّمْرَةِ، يُشْبِهُ الغَجَرَ في شَكْلِهِ، لٰكِنَّ ثِيابَهُ أَقْرَبُ إلى هِنْدامِ سَيِّدٍ نَبيلٍ. وهُوَ، عَلى العُمومِ، وَسيمٌ بِالرَّغْمِ مِنْ تَجَهُّمِهِ وَفَظاظَتِهِ الظّاهِرَةِ.

لَمْ أُطِقِ المُكوثَ طَويلًا، فَاسْتَأْذَنْتُ وانْصَرَفْتُ واعِدًا السَّيِّدَ هيثكْلِف بِزِيارَتِهِ في اليَوْمِ التّالي.

زِيارَتي الثّانِيَة

كانَ البَرْدُ، في اليَوْمِ التّالي، قارِسًا، وقَدْ تَحَوَّلَ الثَّلْجُ الَّذي يُغَطّي الأَرْضَ إلى جَليدٍ، وما إنْ وَصَلْتُ إلى مُرْتَفَعاتِ وذِرِنْغ حَتّى بَدَأَ الثَّلْجُ يَتَساقَطُ. قَرَعْتُ البابَ فَلَمْ يُجِبْني أَحَدٌ، بَلْ سَمِعْتُ صَوْتَ جوزف يَصيحُ مِنْ مَخْزَنِ الحُبوبِ عَبْرَ الفِناءِ: «إنَّ السَّيِّدَ هيثكْلِف في حَظيرَةِ الخِرافِ. السَّيِّدَةُ هيثكْلِف في الدّاخِلِ، لٰكِنَّها لَنْ تَفْتَحَ لَكَ البابَ.»

قَرَعْتُ البابَ ثانِيَةً، فَجاءَ مِنْ وَراءِ البَيْتِ فَتًى يَحْمِلُ مِذْراةً بِيَدِهِ، وقالَ مِنْ دونِ أَنْ يُحَيِّيَني أَوْ يَنْظُرَ إِلَيَّ: «مِنْ هُنا.» تَبِعْتُهُ - وكانَ الثَّلْجُ لا يَزالُ يَتَساقَطُ - فَمَرَرْنا بِغُرْفَةِ الغَسيلِ أَوَّلًا، ثُمَّ المَطْبَخِ، فَغُرْفَةِ الجُلوسِ. رَأَيْتُ داخِلَ الغُرْفَةِ امْرَأَةً شابَّةً تَجْلِسُ قُبالَةَ النّارِ، فَقَدَّرْتُ أَنَّها سَيِّدَةُ المَنْزِلِ.

إنْحَنَيْتُ أَمامَها بِأَدَبٍ مُتَوَقِّعًا أَنْ تُرَحِّبَ بي وتَدْعُوَني لِلْجُلوسِ، لٰكِنَّها ظَلَّتْ صامِتَةً. ثُمَّ وَقَفَتْ ومَشَتْ نَحْوَ رَفِّ المَوْقِدِ، وكانَ عَلَيْهِ إبْريقٌ لِلشّاي. رَأَيْتُ أَنَّها صَبِيَّةٌ لا تَتَجاوَزُ السّابِعَةَ عَشْرَةَ، ذاتُ قَوامٍ رَشيقٍ ووَجْهٍ فاتِنٍ تُشِعُّ فيهِ عَيْنانِ بَرّاقَتانِ ويَلُفُّهُ شَعْرٌ أَشْقَرُ ناعِمٌ.

وأخيرًا نطقتْ: «ما كانَ ينبغي لكَ أنْ تأتيَ في مثلِ هٰذا اليوْمِ. هلْ قدّموا لكَ الشّايَ؟»

قبْلَ أنْ أُجيبَها بالنّفي، دخلَ السّيّدُ هيثكْلِف والثّلجُ مُتناثِرٌ على ثيابِهِ، فبادرْتُهُ بالكلامِ: «أرْجو، يا سيّدي، أنْ تتكرّمَ بإضافتي نصْفَ ساعةٍ حتّى يَصْحُوَ الطّقسُ». فدمْدمَ مُجيبًا: «لا أملَ في تحسُّنِ حالةِ الطّقسِ. ولا يُمكِنُكَ أنْ تجدَ طريقَكَ عَبْرَ الهضابِ في هٰذِهِ العاصِفةِ.» وتساءلْتُ: «هلْ بِمقْدورِ أحدِ عُمّالِكَ أنْ يُرْشِدَني في طريقِ العوْدةِ؟» فأجابَ بلهْجةٍ قاطعةٍ: «كلّا، هٰذا مُستحيلٌ.» هُنا تكلّمَ الفتى وقالَ: «هل سنشْربُ الشّايَ؟» فنظرَتِ الشّابّةُ إلى هيثكْلِف وسألَتْهُ: «ما رأيُكَ؟» فأجابَ: «حسنًا، فلْنشْربِ الشّايَ.»

جلسْتُ إلى الطّاولةِ، وأنا أُفكّرُ في غرابةِ أطْوارِ هٰؤلاءِ القوْمِ، وأحْسسْتُ أنّ زيارتي قدْ أثارَتِ انْزعاجَهُمْ. أثْناءَ تناوُلِ الشّايِ، أخذْتُ أسائلُ نفْسي عنْ نوْعيّةِ العلاقةِ بيْنَ هٰؤلاءِ الثّلاثةِ. ويبْدو أنّ هيثكْلِف قدْ قدّرَ ما يدورُ بِخلَدي، فخاطبَني بقوْلِهِ: «إنّ السّيّدةَ هيثكْلِف هيَ كنّتي.» ونظرَ إليْها نظْرةً مِلْؤُها الحِقْدُ، ثُمّ أشارَ إلى الفتى وقالَ: «هٰذا الأخْرقُ ليْسَ زوْجَها. إنّ زوْجَها قدْ ماتَ.» فقالَ لي الفتى: «أنا اسْمي هيرْتون أرنْشو.»

بعْدَ ذٰلِكَ خرجَ هيثكْلِف وهيرْتون ليهْتمّا بأمْرِ الخرافِ، وتركاني وحْدي معَ تلْكَ السّيّدةِ الكئيبةِ، فتوجّهْتُ إليْها بالكلامِ قائلًا: «أرْجو أن تعْذُريني على إزْعاجي لكُمْ. هلْ يُمكِنُكِ أنْ تدُلّيني على أسْلمِ طريقٍ أسْلُكُها عبْرَ التّلالِ؟» فأجابتْني: «اُسْلُكِ الطّريقَ الّتي أتيْتَ عبْرَها، فلا يُوجدُ هُنا منْ يُرْشِدُكَ.»

هٰكذا قرّرْتُ أنْ أجِدَ طريقي بنفْسي. فلفَفْتُ مِعْطفي حوْلي وأخذْتُ مِصْباحَ جوزِف وبدأْتُ المسيرَ عبْرَ فِناءِ المزْرعةِ. لمّا رآني جوزف أحْمِلُ مِصْباحهُ أفْلتَ اثْنيْنِ منَ الكِلابِ في إثْري، فانْقضّا عليَّ وأوْقعاني على الثّلْجِ. رآني هيثكْلِف

وهيرْتون، وهُما في حَظائِرِ الخِرافِ، فَأَخذا يَضْحَكان ويَهْزَآن بي. لَمْ يَتَحَرَّكْ أَحَدٌ لِمُساعَدَتي سِوى زيلّا مُدَبِّرَةِ المَنْزِلِ، الّتي أَبْعَدَتِ الكَلْبَيْنِ وأَخَذَتْني إلى المَطْبَخِ حَيْثُ قَدَّمَتْ لي شَرابًا ساخِنًا. ورَأَتْ تِلْكَ المَرْأَةُ الطَّيِّبَةُ أَنّني كُنْتُ تَعِبًا جِدًّا فَقَرَّرَتْ، على مَسْؤوليَّتِها، أَنْ تُوَفِّرَ لي مَكانًا أَقْضي فيهِ لَيْلَتي.



أَعْطَتْني ربلا شَمْعَةً وقادَتْني صُعودًا إلى غُرْفة نَوْمٍ في الدَّوْر العُلْوِيّ. وقَبْل أَنْ تَتْرُكني قالَتْ: «إِنْتَبِهْ، لا تَجْعَلْ نور الشَّمْعَةِ مَرْئِيًّا مِن الخارِج، ولا تُحْدِثْ أَيَّ صَوْتٍ، فالسَّيِّدُ هِنْتْكِيف لا يَسْمَحُ بأَنْ يَنامَ أَحَدٌ في هٰذِهِ الغُرْفَة.» ولَمّا اسْتَفْهَمْتُ عنِ السَّبَبِ، أَجابَتْ. «لا أَعْرِفُ يا سَيِّدي، إنّي هُنا مُنْذُ سنَتَيْنِ فَقَطْ. كُلُّ ما أَعْرِفُهُ أَنَّ أَشْياءَ غَريبَةً كانَتْ تَحْدُثُ في السّابِقِ.»

كُنْتُ في غايَة التَّعَب، فلَمْ أُلْقِ بالًا بِكَلامِ ربلا، وقَرَّرْتُ الخُلود للنَّوْم. قَبْل ذٰلِكَ أَجَلْتُ نَظَري في أَرْجاء الغُرْفَةِ، فَوَجَدْتُ أَنَّ هُناكَ كُرْسِيًّا وخِزانَةً وسريرًا خَشَبِيًّا قَديمَ الطِّرازِ تُحيطُ بِهِ سَتائِرُ. لَمّا فَتَحْتُ السَّتائِرَ رَأَيْتُ، وراءَ السَّريرِ، نافِذَةً لَها عَتَبَةٌ عَريضَةٌ. فوَضَعْتُ الشَّمْعَةَ على رَفٍّ في الحائِطِ فَوْقَ رَأْسِ السَّريرِ، وجَلَسْتُ في الفِراشِ بَعْدَ أَنْ أَقْفَلْتُ السَّتائِر.

كانَ على الرَّفِّ عَدَدٌ مِن الكُتُبِ القَديمَة، كُتِبَتْ عَلَيْها أَسْماءٌ مُخْتَلِفَةٌ بِخَطِّ يَدٍ واحِدَةٍ، ومِنْ بَيْنِ هٰذه الأَسْماءِ «كاثْرين هيثْكْلِف» و«كاثْرين لِنْتون»، وكانَ هُناكَ دَفْتَرٌ خُطَّ عَلَيْهِ «مُذَكِّرات كاثْرين أَرْنْشو». قَلَّبْتُ بَعْضَ مِنْ صَفَحاتِ تِلْكَ المُذَكِّراتِ، وقَرَأْتُ مَقاطِعَ مِنْها تَدورُ حَوْلَ كاثْرين هيثْكْلف وشَخْصٍ يُدْعى هِنْدْلي أَرْنْشو. ويَبْدو أَنَّ هِنْدْلي هٰذا كانَ، فيما مَضى، سَيِّدَ المَزْرَعَة، واتَّضَحَ لي مِمّا قَرَأْتُهُ أَنَّ كاثْرين وهِنْدْلي كانا رَفيقَيْ صِبًى.

أَعْتَقِدُ أَنَّ النُّعاسَ قَدْ غَلَبَني وأَنا أَقْرَأُ، لٰكِنّي سُرْعانَ ما أَفَقْتُ على صَوْتِ خَبْطٍ مُتَواصِلٍ. ولَدى التَّدْقيقِ في الأَمْرِ وَجَدْتُ أَنَّ غُصْنَ شَجَرةٍ في الحَديقَة كانَ يَطْرُقُ زُجاجَ النّافِذَة. فَقَلَبْتُ على جَنْبي وغَفَوْتُ ثانِيَةً. ثُمَّ سَمِعْتُ صَوْتَ قَرْعٍ على الشُّبّاك.

فَتَحْتُ النّافِذة، وأَنا شِبْهُ نائِمٍ، لأُبْعِدَ الغُصْنَ. لٰكِنَّ يَدي المَمْدودَةَ لِالْتِقاطِ الغُصْنِ لَمَسَتْ يَدًا صَغيرَةً بارِدَةً كالثَّلْجِ، وسَمِعْتُ صَوْتًا كَئيبًا يَهْتِفُ: «افْتَحوا لي! افْتَحوا لي!»

صَرَخْتُ وأَنا أُحاوِلُ إفْلاتَ يَدي: «مَنْ هٰذا؟»

- أَنا كاثْرين لِنْتون. لَقَدْ عُدْتُ إلى البَيْتِ.. إفْتَحوا لي.

بَدا لي أَنَّني رَأَيْتُ، خِلالَ النّافِذَةِ، صورَةً غَيْرَ جَلِيَّةٍ لِوَجْهِ طِفْلَةٍ. فَرْتَعَشْتُ خَوْفًا وانْتَفَضْتُ بِعُنْفٍ مُحَرِّرًا يَدي. لٰكِنَّ الصَّوْتَ ظَلَّ يَقولُ: «إفْتَحوا لي. إنَّني أَجوبُ الحُقولَ مُنْذُ عِشْرينَ سَنَةً.» فَصِحْتُ مُرْتَعِدًا: «إلَيْكِ عَنّي. إلَيْكِ عَنّي!»



جاء هيثكليف على صوت صُراخي وهو نصف نائم، ولمّا أخبرته بما سمعت وشاهدت ظهر عليه الكربُ والضيقُ، وقال لي: «يمكنك أن تنام في غرفتي يا سيّد لوكوود، فأنا لن أنام بقية هذه الليلة.» بعد أن خرجت صامتًا لمحت هيثكليف جلس على السرير داخل الغرفة. ثمّ هبّ كالمجنون وفتح النافذة وأخذ يبكي بكاءً مريرًا ويقول: «تعالي يا كاثي. هيا يا حبيبتي كاثي.»

الخلاص

بعدتُ عن ذلك الكابوس الرهيب، ونزلتُ إلى الطّبقة السُّفلية، حيثُ قضيتُ بقيّة الليل بجانب النّار التي كانت تخبو شيئًا فشيئًا. وما إن برغت خيوط الفجر الأولى حتّى خرجتُ من بيت المنزل اللّعين المسكون، واجتزتُ الأرض البيضاء بين مُرتفعات ودرنغ وثراشكروس بسُرعةٍ ودقّةٍ. ولمّا وصلتُ خائر القوى بادرت تلك المرأةُ الطيّبةُ، إيلين دين، إلى إشعال النّار في الموقد وتحضير القهوة.

كانت حالتي في المساء قد تحسّنت، وأردتُ معرفة المزيد عن ذلك المنزل وأهله. فلمّا أحضرتْ إيلين العشاء طلبتُ منها البقاء، وسألتُها فورًا:

«إنكِ هنا يا سيّدةُ دين، منذُ ثمانية عشر عامًا، أليس كذلك؟»

«أجلْ يا سيّدي. لقد جئتُ مع سيّدتي عندما تزوّجت، ولمّا توفّيت، بعد ذلك ببضع سنوات، أبقاني زوجها السيّدُ إدغار لنتون كمدبّرةٍ للمنزل.»

ثُمّ تابعتْ حديثها: «إنّ إيزابيلا شقيقة السيّد إدغار لنتون تزوّجت هيثكليف وابنهما لنتون هيثكليف كان الزّوج الرّاحل للآنسة الشابة السيّدة هيثكليف التي تعيشُ اليوم في مُرتفعات ودرنغ، حيثُ تعيشُ أيضًا هرتون أرنشو. وهيرتون المسكينُ هو ابنُ سيّدي السابق المرحوم هندلي أرنشو، وهو يلقى من السيّد هيثكليف مُعاملةً سيّئةً كأنّه أحدُ العُمّال. وكذلك فإنّ وضع السيّدة هيثكليف لا يقلُّ تعاسةً. فهيثكليف هذا رجلٌ فظٌّ صارمٌ لا أثر للرأفة والإنسانيّة في قلبه أبدًا.»

رواية إيلين دين

كانتْ إيلين دين تعرفُ مُرتفعات ودرنغ منذُ طفولتها المُبكّرة، فأمُّها كانت



يَعْمَلُ لدى صاحِبَيْ تِلْكَ المَزْرَعَةِ السَّيِّدِ والسَّيِّدةِ أَرْنْشو كَمُرَبِّيَةٍ لِطِفْلَيْهِما البِكْرِ هِنْدْلي ثُمَّ لابْنَتِهِما كاثْرين الَّتي كانَتْ تَصْغُرُ أَخاها بِثَمانِيَةِ أَعْوامٍ، وقَدْ أَخْبَرَتْني تَفاصيلَ قِصَّةِ مُرْتَفَعاتِ وَذِرِنْغ فَدَوَّنْتُها بِكُلِّ أَمانَةٍ.

عِنْدَما كانَتْ كاثْرين في حَوالَى السَّادِسَةِ مِنْ عُمْرِها، ذَهَبَ الوالِدُ يَوْمًا إلى ليفَرْبول سَيْرًا في رِحْلَةِ عَمَلٍ. وقَدْ سَأَلَ وَلَدَيْهِ عَمَّا يُريدانِ أَنْ يُحْضِرَ لَهُما مَعَهُ كَهَدِيَّةٍ. فَطَلَبَ هِنْدْلي كَمَنْجَةً وأَعْرَبَتْ كاثْرين عَنْ رَغْبَتِها في سَوْطٍ لِرُكوبِ الخَيْلِ.

الصَّبِيُّ الغَجَرِيّ

بَعْدَ ثَلاثَةِ أَيّامٍ سُمِحَ لِلوَلَدَيْنِ بِالسَّهَرِ لانْتِظارِ عَوْدَةِ والِدِهِما. وقَدْ وَصَلَ في آخِرِ اللَّيْلِ مُتْعَبًا، وارْتَمى مُتَهالِكًا على مَقْعَدِهِ وهُوَ يَحْمِلُ بَيْنَ يَدَيْهِ صُرَّةً كَبيرَةً. قالَ وهُوَ يَلْتَقِطُ أَنْفاسَهُ: «يا لَها مِنْ رِحْلَةٍ مُتْعِبَةٍ. خُذي هذا يا زَوْجَتي العَزيزَةَ. يُمْكِنُكِ أَنْ تَعْتَبِريهِ هِبَةً مِنَ اللهِ بِالرَّغْمِ مِنْ سَوادِهِ!» فَتَحَ الصُّرَّةَ، فَإِذا بِداخِلِها طِفْلٌ قَذِرٌ داكِنُ البَشَرَةِ فاحِمُ الشَّعْرِ مُمَزَّقُ الثِّيابِ. بَدا الطِّفْلُ في سِنٍّ تُؤَهِّلُهُ لِلمَشْيِ والكَلامِ، لَكِنَّهُ وَقَفَ مَكانَهُ مُحَدِّقًا وهُوَ يُثَرْثِرُ أَصْواتًا لَمْ يَفْهَمْ مِنْها أَحَدٌ شَيْئًا.

صاحَتِ السَّيِّدَةُ أرنْشو مذْعورةً: «لا يُمْكِنُ أنْ نُبْقي هٰذا الغجَرِيَّ الصَّغير بيْننا. هَلْ جُنِنْتَ بِتُحْضِرَ لي هٰذا الشَّقِيَّ القذِرَ! ثُمّ إنَّ لَدَيْنا وَلَدَيْنا الحبيبيْنِ سنهْتَمّ بِهِم.» لٰكِنّ الزّوْجَ أوْضحَ أنَّهُ قَدْ وَجدَ الصّبِيَّ تائِهًا في شوارِعِ ليفَرْبول، وَحيدًا شَريدًا، فأشْفق عَلَيْهِ وقرَّرَ إحْضارَهُ معَهُ. ثُمَّ كُلِّفَتْ إلين دين بِغسْلِه وتَنْظيفِهِ وإلْباسِهِ ثِيابًا لائِقَةً.

بُذور الكَراهِية

خابَ ظَنُّ هِنْدْلي عِنْدَما وَجد أنّ الكَمنْجَة قَدْ تَحَطّمتْ داخِلَ الصُّرَّةِ، أمّا كاثْرين فاكْتَشَفَتْ أنّ سوْط رُكوبِ الخيْلِ قدْ ضاعَ. لِذٰلِكَ اعْتبَرا أنّ ذٰلِكَ الطّفْلَ الغجرِيّ هُوَ سَبَبُ ذٰلِكَ، فَلَمْ يُرَحِّبا بِوُجودِهِ مَعَ العائِلَةِ.

سمّى السّيّدُ أرنْشو الوَلَد هيثْكْلِف. ومَعَ مُرورِ الأيّامِ تغيّرَتْ نظْرةُ كاثْرين إلى هيثْكْلِف، وبدأتْ تألَفُ وُجودَهُ وتُشاطِرُهُ اللّعِبَ. أمّا هِنْدْلي فقدْ ظلّ على كُرْهِه لَهُ



وسَعى دائمًا لِمُضايَقَتِهِ وإزْعاجِهِ. لِذلِكَ أرادَ السَّيِّدُ أرْنشو أنْ يُعَوِّضَ الصَّبِيَّ المِسْكينَ سُوءَ المُعامَلَةِ التي يَلْقاها فَحاوَلَ أنْ يَرْعاهُ ويُدَلِّلَهُ أكْثَرَ مِنْ وَلَدَيْهِ.

كانَتْ كاثْرين بِطَبْعِها عابِثَةً مُشاكِسَةً، وكانَ هِنْدْلي شَديدَ الحَساسِيَّةِ، لِذلِكَ انْعَكَسَتْ مُعامَلَةُ والِدِهِ القاسِيَةُ عَلى نَفْسِيَّتِهِ، فَغَدا فَتًى مُتَجَهِّمًا ضَعيفَ المِراسِ. وقَدِ ازْدادَ الوَضْعُ سُوءًا بَعْدَ سَنَتَيْنِ عِنْدَما تُوُفِّيَتِ السَّيِّدَةُ أرْنشو، فَفَقَدَ هِنْدْلي رِقَّتَها وحَنانَها وأخَذَ يَنْظُرُ إلى والِدِهِ عَلى أنَّهُ طاغِيَةٌ بِلا رَحْمَةٍ، واعْتَبَرَ هيثْكْلِيف إنْسانًا نَعِصًا يَسْتَغِلُّ عَطْفَ والِدِهِ، لِذلِكَ كانَ يُعامِلُهُ بِفَظاظَةٍ. لَمْ يَغْفِرْ هيثْكْلِيف لِهِنْدْلي هذا المَوْقِفَ وأقْسَمَ عَلى الانْتِقامِ مِنْهُ يَوْمًا.

كانَ الأوْلادُ الثَّلاثَةُ يَتَلَقَّوْنَ دُروسَهُمْ مَعًا عَلى يَدِ أُسْتاذٍ واحِدٍ. ثُمَّ حانَ الوَقْتُ لِمُغادَرَةِ هِنْدْلي لِلالْتِحاقِ بِمَعْهَدٍ عالٍ. فَنَمَتِ العَلاقَةُ بَيْنَ كاثْرين وهيثْكْلِيف، وكانَ يَجْمَعُ الاثْنَيْنِ حَيَوِيَّتُهُما وحُبُّهُما المُشْتَرَكُ لِلمُغامَراتِ والمَرَحِ. في أثْناءِ ذلِكَ بَدَأَ الوَضْعُ الصِّحِّيُّ لِلسَّيِّدِ أرْنشو بِالتَّراجُعِ، إلى أنْ وافاهُ الأجَلُ، فَحَزِنَ هيثْكْلِيف وكاثْرين لِذلِكَ كَثيرًا.

هِنْدْلي يَرِثُ والِدَه

عادَ هِنْدْلي أرْنشو لِحُضورِ مَأْتَمِ والِدِهِ، وفوجِئَ الجَميعُ عِنْدَما أحْضَرَ مَعَهُ زَوْجَةً اسْمُها فرانْسِس. لَمْ يَكُنْ أحَدٌ يَعْلَمُ شَيْئًا عَنْ عائِلَتِها، ولكِنَّها كانَتْ فَتاةً نَحيلَةً جَذّابَةً، وقَدِ اسْتَقَرَّتْ بِسُرْعَةٍ في بَيْتِها الجَديدِ واعْتادَتْ عَلَيْهِ. أظْهَرَتْ فرانْسِس اهْتِمامًا بِكاثْرين، فَكانَتْ تُغْدِقُ عَلَيْها الهَدايا وتُلاطِفُها في الحَديثِ. وكانَ هِنْدْلي مُتَيَّمًا بِزَوْجَتِهِ، وقَدْ عامَلَها بِرِقَّةٍ وأفْرَطَ في تَدْليلِها

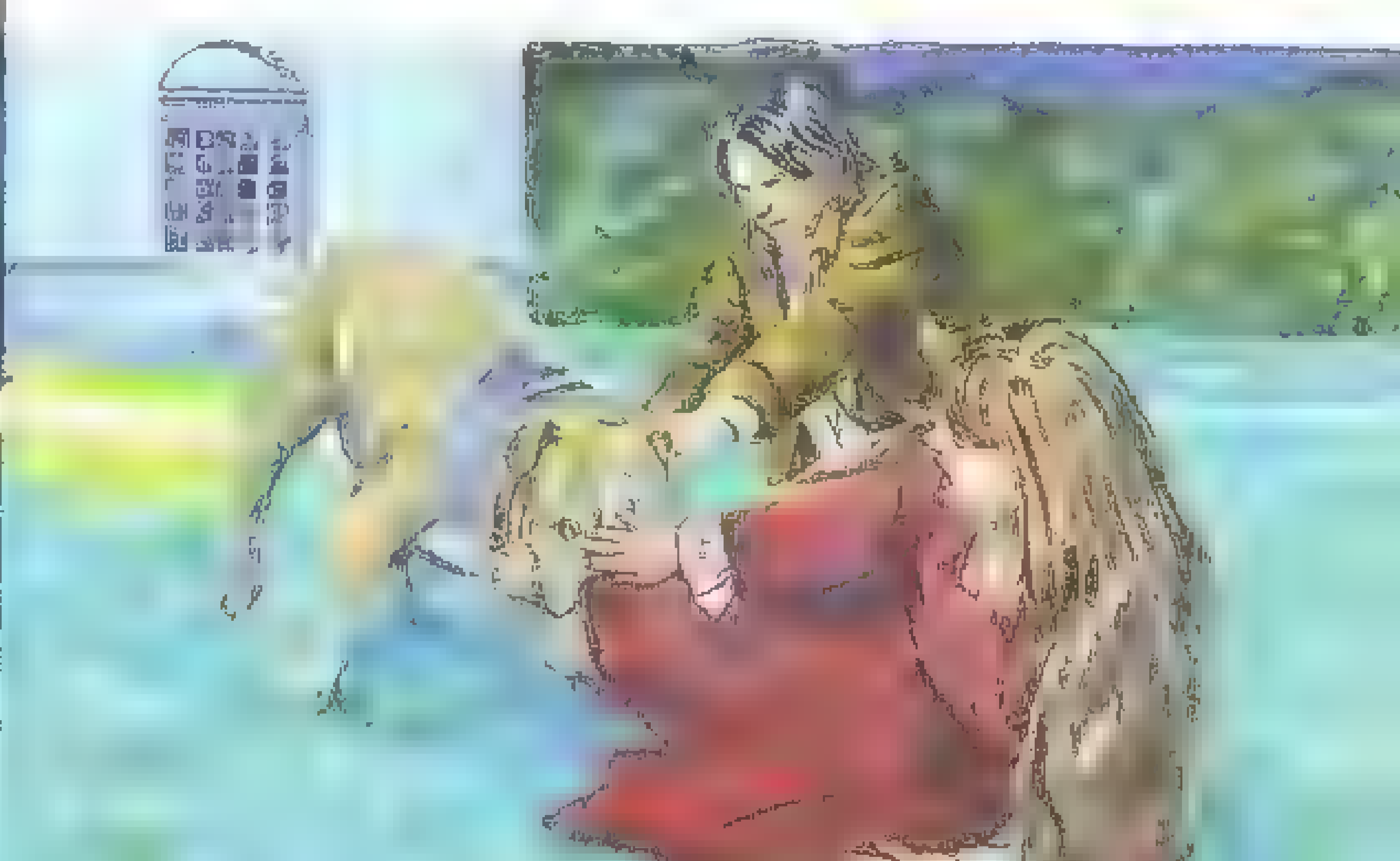
بَعْدَ مُدَّةٍ، تَبَيَّنَ أنَّ فرانْسِس ضَعيفَةٌ وتُعاني مِنْ سُعالٍ وضيقٍ في النَّفَسِ. وقَدْ أدّى مَرَضُها إلى جَعْلِها إنْسانَةً نَكِدَةً سَيِّئَةَ الطَّبْعِ. وأخَذَتْ تَكْرَهُ هيثْكْلِيف، فَتَأَثَّرَ زَوْجُها بِمَوْقِفِها هذا، خُصوصًا وأنَّ في ذلِكَ ما يُعَزِّزُ كَراهِيَةَ هِنْدْلي القَديمَةَ لَهُ. وبِما أنَّ هِنْدْلي قَدْ أصْبَحَ سَيِّدَ المَزْرَعَةِ، فَقَدْ مَنَعَ هيثْكْلِيف مِنَ التَّعَلُّمِ عَلى يَدِ المُدَرِّسِ، ونَقَلَهُ إلى مَبْنى الخَدَمِ، وفَرَضَ عَلَيْهِ أنْ يَشْتَغِلَ كَعامِلٍ في المَزْرَعَةِ.

تأخّر هيثكليف وكاثي يومًا في العودة إلى المزرعة بعد جولةٍ في المنطقة، فغضب هندلي وصاح: «أقفلوا الأبواب. لا يُسمحنّ لأحدٍ بدخولهم.»

أثار هذا قلقي كثيرًا، وما إن سمعتُ، بعد قليلٍ، وقع أقدامٍ في الخارج حتى رحتُ مهرولةً لأفتح لهما. لكنّني وجدتُ هيثكليف وحده فسألته: «أين الآنسة كاثرين؟» وكان جوابه: «إنّها في ثراشكروس غرينج. وكان من المفروض أن أبقى معها. لكنّهم بلا أدبٍ وطلبوا منّي الرّحيل.»

أدخلتْه إيلين ليجفّف ثيابه أمام الموقد، وأخذتْ تُصغي إليه وهو يروي تفاصيل ما حدث: «أتعلمين أنّ هندلي كان قد حبس أنا وكاثي، بعد الظُّهر، في غُرفة الغسيل، لأنّنا أحدثنا ضوضاء في أثناء تكلّمنا؟ بعد غروب الشّمس، هربنا، وذهبنا في نزهةٍ عبر المروج. لمّا وصلنا إلى ثراشكروس غرينج قرّرنا الاقتراب واختلاس النّظر لنرى كيف يقضي جارانا إدغار وإيزابيلا لنتون السّهرة.»

بعد أن صمت هيثكليف قليلًا ليلتقط أنفاسه إزاء النّار، تابع قائلًا: «ركضنا من



دون توقّفٍ من أعلى التلّة حتى حدود حديقة المنزل، وكانت كاثي تركضُ حافيةً بعد أن أضاعتْ حذاءها في المستنقع. لمّا وصلْنا البيت اقتربنا من نافذة غرفة الجلوس المضاءة. كانت غُرفةً رائعةً ذات سجّادةٍ قرمزيّةٍ ومقاعد حمراء وسقفٍ أبيض له أطرٌ ذهبيّةٌ تتدلّى في وسطه ثريّا زجاجيّةٌ رائعةٌ تحملُ عشرات الشُّموع. اضطُررْنا لأن نضحك بصوتٍ مرتفعٍ عندما رأينا إدغار لنتون وأختَه يتشاجران مُختلفَين على مُداعبة كلبٍ، فرآنا ونادَيا والديهما. وقد اعتقد السّيّد لنتون العجوز أنّنا لصّان، فأطلق كلابَه نحونا. وقد قام الكلب الضّخم «سكالكر» بعضّ كاثي في كاحلها. لكنْ عندما عرفوها أخذوها إلى الدّاخل، حيثُ نظّفوا كاحلَ كاثي ولفّوه برباطٍ. ثُمّ طلبوا منّي الرّحيلَ، فتركْتُ كاثي هُناكَ وجئْتُ.»

علّقتْ إيلين على الحادثة بقولها: «إنّ هذا سيُسبّبُ لكَ المزيدَ من المتاعب يا هيثكليف!» وهذا ما حصل بالفعل، إذْ إنّ السّيّد لنتون أتى في الصّباح إلى مُرتفعات ودرنغ ووبّخ هندلي على طريقة تربيته لأفراد عائلته. وقد أثار ذلك حنق هندلي، فمنع هيثكليف من مُرافقة كاثي إلى أيّ مكانٍ.





السَّيِّدَة وعامِل المَزْرَعَة

أُعجِبَ أفرادُ عائِلَةِ لِنتون بِكاثْرين، وأقْنَعوها بالبَقاءِ في ضِيافَتِهِمْ في ثراش غرانج مُدَّةَ خَمْسَةِ أسابيعَ، أيْ حَتَّى قُبَيْلِ عيدِ الميلادِ. وقَدْ تَأَثَّرَتْ بِطَريقَةِ عَيْشِهِمْ وذَوْقِهِمِ الرَّفيعِ. وعِنْدَما عادَتْ إلى مُرْتَفعاتِ ودرنْغ بَدا أنَّ الفَتاةَ الطائِشَةَ قَدْ ذَهَبَتْ إلى غَيْرِ رَجْعَةٍ وحَلَّتْ مَحَلَّها سَيِّدَةٌ صَغيرَةٌ رَزينَةٌ.

تَرَجَّلَتْ عَنْ جَوادِها بِكُلِّ هُدوءٍ وأناقَةٍ وكانَتْ تَبْتَسِمُ ابْتِسامَةً رَصينَةً، وقَدْ تَدَلَّتْ خُصَلُ شَعْرِها تَحْتَ قُبَّعَتِها الجَميلَةِ. لاحَظَ أخوها هِندْلي هٰذا التَّحَوُّلَ فَخاطَبَها مُنْدَهِشًا: «حَسِبْتُكِ شَخْصًا آخَرَ. أرْجو، يا كاثي، ألّا تَعودي إلى سابِقِ عَهْدِكِ».

دَخَلَتْ كاثي تَوًّا تَبْحَثُ عَنْ هيثكْلِف، فَوَجَدَتْهُ في غُرْفَةِ الجُلوسِ مُخْتَبِئًا في الزّاوِيَةِ، وقَدْ تَشَعَّثَ شَعْرُهُ ورَثَّتْ هَيْئَتُهُ بِسَبَبِ إهْمالِ الجَميعِ لَهُ مَدى الأسابيعِ

السابقة. فطارت نحوه باسمةً وتعانقا. وما لبث هيثكليف أن تراجع، فنظرت إليه وقالت: «كم تبدو متجهّمًا يا هيثكليف! ماذا دهاك؟ هل نسيتني؟»

تيقّن هيثكليف كم أنّ وضعه زريٌّ بالمقارنة مع أناقة كاثرين، فآثر الصمت، لكنّ هندلي شجّعه بقوله: «يمكنك مصافحة كاثرين، هيّا.»

هنا خرج هيثكليف عن صمته فقال: «لا أريد ذلك. ولن أظلّ هنا لأتعرّض للإهانة والسخرية.» وهمّ بالخروج فأمسكت كاثي يده وقالت: «لم أقصد الهزء بك. لكنّك تبدو - بالفعل - متجهّمًا قذرًا. فلو غسلت وجهك وسرّحت شعرك لتغيّرت هيئتك.» فما كان من هيثكليف إلّا أن نتر يده بعيدًا، وخرج وهو يقول: «ما كنتِ مضطرّةً للمسي. سأظلّ هكذا قذرًا كما أريد.» وقد أثار ذلك سرور هندلي، أمّا كاثي فغرقت في صمتٍ حزين.

حفلة عيد الميلاد

بعد أيّامٍ دُعي إدغار وإيزابلا لنتون إلى حفلةٍ في مرتفعات وذرنغ بمناسبة عيد الميلاد، وذلك كبادرة شكرٍ على ما قام به أهلهما تجاه كاثرين. ولم تقبل السيّدة لنتون الدعوة إلّا بشرطٍ واحدٍ هو ألّا يختلط ابناها بهيثكليف الذي وصفته بالولد الشقيّ البذيء اللسان.

قضى هيثكليف نهاره في البراري، ولدى عودته وافق على أن تساعده إيلين على ترتيب هندامه ومظهره. وقد قدّرت إيلين أنّ كاثرين ستُسَرّ بوجود هيثكليف في الحفلة بالرغم من شرط السيّدة لنتون، وقالت له: «سوف تكون مرتّبًا ونظيفًا. إنّ إدغار لنتون سيظهر أمامك كالدمية، فأنت أطول منه وأقوى بنيةً. بإمكانك أن تصرعه بطرفة عين، أليس كذلك؟»

أجاب هيثكليف: «قد يكون ذلك صحيحًا. ولكنّي أحسده على مظهره الأنيق وشعره الأشقر، وبالطبع على الثروة الكبرى التي سيرثها يومًا.»

تَمَكَّنَتْ إيلين مِنْ تَهْدِئَةِ خاطِرِ هيثْكليف وإعادَةِ الابْتِسامَةِ إلى ثَغْرِهِ، ولمّا وصل المَدْعوّاتُ أرْسَلَتْهُ بِكامِلِ أناقَتِهِ ونَظافَتِهِ لِيَنْضَمَّ إلى الحَفْلِ. وقَدْ دَخلَ القاعةَ فيما كانَ هِنْدْلي يُرَحِّبُ بِإدْغار وإيزابيلا. لَمّا رَأى هِنْدْلي أنّ هيثْكليف قُرْبَهُ دفعَهُ جانبا



وأمَرَ جوزيف بأخْذِهِ إلى لعِلّيَّةِ وحَبْسِهِ هُناكَ حَتّى انْتِهاءِ الحَفْلَةِ. ومِمّا زادَ الطِّينَ بِلَّةً أَنَّ إِدْغار لِنْتون تَفَوَّهَ بِبِضْعِ مُلاحَظاتٍ سَخيفَةٍ فَتَضاعَفَ غَضَبُ هيثكْليف.

لَمْ تَتَحَمَّلْ هيثكْليف ذٰلِكَ، فَتَناوَلَ عَنِ الطّاوِلَةِ سُلْطانِيَّةً فيها حَساءٌ ساخِنٌ ورَمَى ما فيها عَلى وَجْهِ إِدْغار. تَبِعَ ذٰلِكَ أَصْواتٌ صاخِبَةٌ، فَتَنَبَّهَتْ كاثْرين وإيزابِلّا فَجاءَتا لِتَرَيا هِنْدْلي أَرنْشو يَهْجُمُ عَلى هيثكْليف ويَجُرُّهُ إلى الطَّبَقَةِ العُلْيا، حَيْثُ ضَرَبَهُ وحَبَسَهُ في العِلِّيَّةِ.

تَمَكَّنَتْ كاثْرين، في آخِرِ السَّهْرَةِ، مِنَ الخُروجِ والتَّسَلُّقِ إلى العِلِّيَّةِ حَيْثُ سُجِنَ هيثكْليف. وعِنْدَما ذَهَبَتْ آلُ لِنْتون تَرَكَتْ وإيّاهُ إلى المَطْبَخِ خِلْسَةً. بَعْدَ أَنْ قَدَّمَتْ لَهُ إيلين بَعْضَ الطَّعامِ أَخَذَ يَنْدُبُ حَظَّهُ، ثُمَّ قالَ: «سَوْفَ أَنْتَقِمُ مِنْ هِنْدْلي مَهْما طالَ الزَّمَنُ». فَعَلَّقَتْ إيلين: «يا هيثكْليف، عَلَيْكَ أَنْ تكونَ مُتَسامِحًا». لٰكِنَّ هيثكْليف أَجابَ: «التَّسامُحُ كَلامٌ فارِغٌ! دَعيني وشَأْني أَرْجوكِ.. سَوْفَ أَنْتَقِمُ يَوْمًا.»

حَياةٌ ومَوْت

في الصَّيْفِ التّالي، أَيْ في العامِ ١٧٧٨، وَضَعَتْ فرانْسِس أَرنْشو طِفْلًا جَميلًا، أَسْمَوْهُ هيرْتون على اسْمِ أَحَدِ أَجْدادِ العائِلَةِ. كانَتْ فرانْسِس تُعاني مِنْ ضَعْفٍ صِحِّيٍّ، ولَمْ تَتَحَمَّلْ مَشاقَّ الوِلادَةِ ومَتاعِبَ واجِباتِ الأُمومَةِ، فَتَدَهْوَرَتْ أَحْوالُها الصِّحِّيَّةُ، خِلالَ أُسْبوعٍ، إلى أَنْ وافَتْها المَنِيَّةُ. وقَدْ وَقَعَتْ مُهِمَّةُ تَرْبِيَةِ الطِّفْلِ عَلى إيلين.

لَمْ يَهْتَمَّ هِنْدْلي بِابْنِهِ، بَلْ شَغَلَ نَفْسَهُ بِالبُكاءِ على خَسارَةِ زَوْجَتِهِ، ثُمَّ تَحَوَّلَ إلى الشَّرابِ والمُقامَرَةِ في مُحاوَلَةٍ فاشِلَةٍ لِنِسْيانِ هُمومِهِ. وأَصْبَحَ عَنيفَ المِزاجِ حَدَّ الوُصولِ لِدَرَجَةِ الاسْتِبْدادِ. وهٰذا ما دَفَعَ كُلَّ العامِلينَ في مُرْتَفَعاتِ وِذَرِنْغ إلى تَرْكِ العَمَلِ بِاسْتِثْناءِ إيلين وزيلّا والعَجوزِ جوزِف.

كانَ لِهٰذِهِ الظُّروفِ أَثَرُها في تَقْريبِ كاثي مِنْ هيثكْليف، فَكانَتْ تَقْضي مُعْظَمَ وَقْتِها في الإِسْطَبْلاتِ حَيْثُ كانَ هيثكْليف يَهْتَمُّ بِأَمْرِ الجِيادِ، وكانَ كُلَّما وَجَدَ فُرْصَةً ذَهَبَ وإيّاها في جَوْلَةٍ عَلى الهِضابِ في المِنْطَقَةِ.

كانَتْ كاثي تُحِبُّ أَنْ تُجَرِّبَ ارْتِداءَ أَجْمَلِ ثِيابِها عِنْدَما تَكونُ وَحيدَةً في غُرْفَتِها. وَقَدْ دَخَلَ هيثْكْلِف غُرْفَتَها بَعْدَ ظُهْرِ أَحَدِ الأَيّامِ، فَفوجِئَ بِأَناقَتِها وَسَأَلَها: «لِماذا تَرْتَدينَ أَجْمَلَ ثِيابِكِ؟ هَلْ تَتَوَقَّعينَ أَنْ يَزورَكِ أَحَدٌ؟»

أَجابَتْ كاثْرين: «كَلّا. وَلٰكِنْ أَلا يُفْتَرَضُ أَنْ تَكونَ الآنَ في الحَقْلِ؟» فَقالَ: «هِنْدْلي لَيْسَ في المَزْرَعَةِ. لِذٰلِكَ سَأَتَوَقَّفُ عَنِ العَمَلِ وَأُمْضي بَقِيَّةَ هٰذا اليَوْمِ مَعَكِ.» ثُمَّ جَلَسَ مُسْتَرْخِيًا قُبالَةَ النّارِ، لٰكِنَّ كاثْرين قالَتْ بَعْدَ لَحْظَةِ صَمْتٍ: «إِنَّ إِدْغار وَإِيزابلا قَدْ يَحْضُرانِ بَعْدَ الظُّهْرِ.»

– أُطْلُبي مِنْ إِلِن أَنْ تَقولَ لَهُما إِنَّكِ مُنْشَغِلَةٌ بِأَمْرٍ هامٍّ وَلَنْ تَسْتَطيعي اسْتِقْبالَهُما.

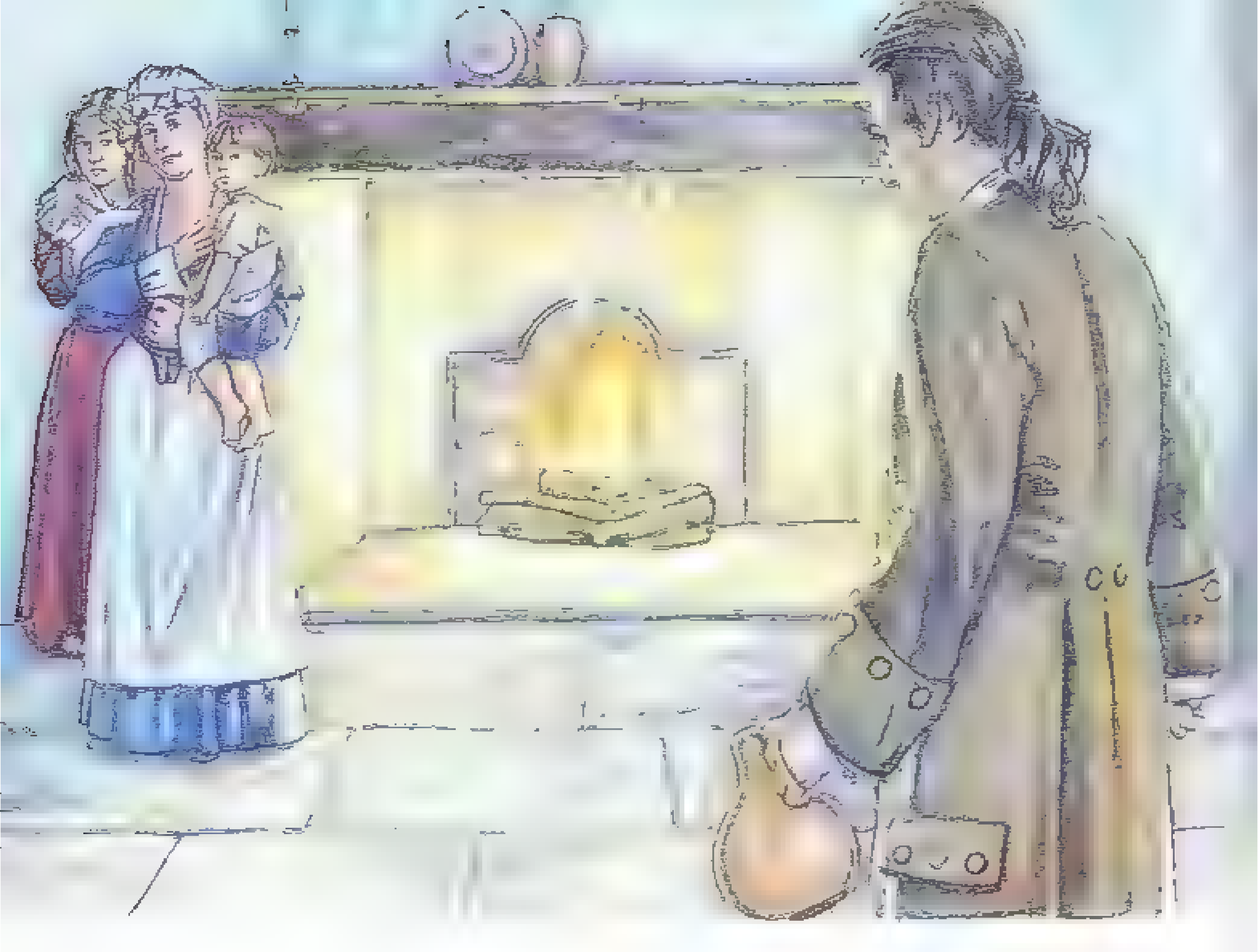
– كَلّا، فَأَنا أُحِبُّ اسْتِقْبالَهُما. ما عَلَيْكَ أَنْتَ إِلّا أَنْ تَظَلَّ جالِسًا وَتَصْمُتَ كَالأَبْلَهِ.

غَضِبَ هيثْكْلِف وَتَجَهَّمَ وَجْهُهُ، لٰكِنَّهُ تَمالَكَ نَفْسَهُ وَخَرَجَ مِنَ الغُرْفَةِ بِخُطًى وَئيدَةٍ.

خِلالَ زِيارَةِ إِدْغار وَإِيزابلا، لَمْ تَجِدْ كاثْرين صُعوبَةً في مُلاحَظَةِ الفَرْقِ الشّاسِعِ بَيْنَ إِدْغار وَهيثْكْلِف، فَالأَوَّلُ وَسيمٌ أَبْيَضُ البَشَرَةِ أَنيقُ المَلْبَسِ لَطيفُ الحَديثِ، أَمّا الثّاني فَغَليظٌ أَسْوَدُ الوَجْهِ فَظُّ الكَلامِ جافي الطِّباعِ.

لَمْ يَطُلْ بَقاءُ الزّائِرَيْنِ إِذْ سَمِعا صَوْتَ هِنْدْلي أَرْنْشو عائِدًا إِلى البَيْتِ ثَمِلًا كَعادَتِهِ، فَانْصَرَفا لِتَجَنُّبِ الإِحْراجِ. دَخَلَ هِنْدْلي الغُرْفَةَ مُتَرَنِّحًا فَابْتَعَدَتْ إِيلين مِنْ طَريقِهِ، وَهِيَ تَحْمِلُ هيرْتون الصَّغيرَ الَّذي تَشَبَّثَ بِها، وَوَقَفَتْ كاثْرين وَراءَها.

صاحَتْ بِهِ إِلِين: «إِنَّكَ في حالَةٍ يائِسَةٍ يا سَيِّدي. أَصْبَحَ الجَميعُ يَكْرَهونَكَ عِنْدَما تَكونُ هٰكَذا.» فَقالَ هِنْدْلي وَهُوَ يَتَّجِهُ نَحْوَ الرَّفِّ لِأَخْذِ زُجاجَةِ شَرابٍ: «أَبْعِدي هٰذا الطِّفْلَ عَنْ ناظِرَيَّ؛ لا أُريدُ أَنْ أَراهُ.. وَكَذٰلِكَ هيثْكْلِف. وَإِلّا ارْتَكَبْتُ جَريمَةً.» ثُمَّ صَعِدَ إِلى غُرْفَتِهِ وَهُوَ يَتَمايَلُ.



حَقيقَةُ مَشاعِرِ كاثْرين

بَيْنَما كانَتْ إيلين تَهُمُّ بِوَضْعِ هيرْتون في سَريرِهِ، دَخَلَتْ كاثْرين إلى الغُرْفَةِ وجَلَسَتْ إزاءَها، ثُمَّ سَأَلَتْها: «أَيْنَ هيثْكْليف؟» فَأَجابَتْ إيلين «قَدْ يَكونُ في الإسْطَبْلِ.» صَمَتَتْ كاثْرين قَليلًا، ثُمَّ قالَتْ: «هَلْ أَسْتَطيعُ ائْتِمانَكِ عَلى سِرٍّ؟»

بِالطَّبْعِ، أَنْتِ تَعْلَمينَ كَمْ أُحِبُّكِ.

- لَقَدْ عَرَضَ عَلَيَّ إدْغَر لِنْتون الزَّواجَ. فَهَلْ كانَ يَجِبُ أَنْ أَقْبَلَ أَوْ أَرْفُضَ؟

صُعِقَتْ إيلين بِما سَمِعَتْهُ، لٰكِنَّها أَجابَتْ بِكُلِّ صَراحَةٍ. «أَمْرٌ غَريبٌ يا آنِسَةُ كاثْرين! إذا كانَ السَّيِّدُ لِنْتون قَدْ طَلَبَ ذٰلِكَ بَعْدَما رَأَى كَيْفَ تَتَصَرَّفينَ فَلا بُدَّ أَنَّهُ أَحْمَقُ، والأَجْدَرُ بِكِ أَنْ تَرْفُضي طَلَبَهُ.» فَأَجابَتْ كاثْرين بِفَظاظَةٍ:

لَنْ أُكْمِلَ الحَديثَ مَعَكِ .. عَلى كُلِّ حالٍ، لَقَدْ قَبِلْتُ طَلَبَهُ



- إذا كُنتِ قد أبلغتِهِ موافقتَكِ، فلا داعيَ إذًا لأخذِ رأيي.

بعدَ صمتٍ طويلٍ عادتْ كاثرين إلى الكلامِ فسألتْ إيلين:

- أخبريني يا إيلين: هلْ كُنتُ مُصيبةً في المُوافقةِ على الزّواجِ بإدغار؟ وهَلْ تُحبّينهُ حقًّا؟

- طبعًا أُحبُّهُ!

- لماذا تُحبّينهُ؟

- لأنّهُ... لأنّهُ شابٌّ وَسيمٌ و... يُحبُّني، وسيُصبِح ثريًّا. سأغدو أحسَنَ سيّدةٍ في المِنطقةِ.

- أرَى أنّكِ مُصمّمةٌ، فتزوّجي مِنْهُ إذًا.

- وهٰذا ما سيَحصُلُ. لَستُ بِحاجةٍ لإذْنٍ مِنكِ!

عادَ الأثيرُ إلى الوُجوم، ثُمَّ قَطَعَتْ كاثْرين الصَّمْتَ بِقَوْلِها: «أَجَلْ، إنّي قَلِقَةٌ. إنّني في صَميمِ قَلْبي أعْرِفُ أنّني لا يَجِبُ أنْ أتَزَوَّجَ مِنْ إدْغار. لَوْ لَمْ يُسِئْ أخي مُعامَلَةَ هيثْكْلِف لِيَكونَ بِهذا المُسْتَوى الوَضيعِ لَما فَكَّرْتُ بِإدْغار. إنّني في أعْماقِ نَفْسي أُحِبُّ هيثْكْلِف حُبًّا عَميقًا. إنَّهُ أقْرَبُ إلَيَّ مِنْ روحي. أنا وهيثْكْلِف نَكادُ نَكونُ شَخْصًا واحِدًا.»

إخْتِفاء هيثْكْلِف

هُنا تَنَبَّهَتْ إيلين إلى أنَّ هيثْكْلِف كانَ داخِلَ الغُرْفَةِ قُرْبَ البابِ. ويَبْدو أنَّهُ سَمِعَ الحَديثَ، فَأدارَ ظَهْرَهُ وخَرَجَ بِهُدوءٍ مِنْ دونِ أنْ تُلاحِظَهُ كاثْرين.

تابَعَتْ كاثْرين حَديثَها الّذي يُظْهِرُ كَوامِنَ نَفْسِها المُضْطَرِبَة: «لا يُمْكِنُ التَّفْريقُ بَيْني وبَيْنَ هيثْكْلِف. وعَلى إدْغار أنْ يَتَحَمَّلَ هيثْكْلِف ويُساعِدَهُ عَلى تَحْسينِ مُسْتَواهُ.» فَعَلَّقَتْ إيلين قائِلَةً: «يا آنِسَةُ كاثْرين، أشُكُّ في أنْ يَكونَ إدْغار مُتَفَهِّمًا ومُتَسامِحًا لِهذِهِ الدَّرَجَةِ!»

أجابَتْ كاثْرين غاضِبَةً: «لا بُدَّ مِنْ أنْ يَقومَ إدْغار بِمُساعَدَةِ هيثْكْلِف. ثُمَّ ألا تَعْلَمينَ، يا إيلين، أنَّ زَواجي مِنْ هيثْكْلِف - إذا حَصَلَ - سَيَجْعَلُنا مُتَسَوِّلَيْنِ، وسَيَدْفَعُ هِنْدْلي إلى طَرْدِنا؟ فَلا بُدَّ إذًا مِنَ الاقْتِرانِ بِإدْغار مَعَ أنَّ حُبّي لَهُ سَطْحِيٌّ. أمّا حُبّي لِهيثْكْلِف فَمُخْتَلِفٌ، نَحْنُ نَكادُ نَكونُ روحًا واحِدَةً.»

لَمّا حانَ وَقْتُ العَشاءِ، طَلَبَتْ إيلين مِنْ جوزف الذَّهابَ ودَعْوَةَ هيثْكْلِف لِلدُّخولِ، ثُمَّ تَمالَكَتْ شَجاعَتَها وأخْبَرَتْ كاثْرين بِأنَّها تَعْتَقِدُ أنَّ هيثْكْلِف سَمِعَ جانِبًا مِنْ حَديثِهِما في الغُرْفَةِ. وهُنا عادَ جوزف وأفادَ أنَّهُ لَمْ يَجِدْ أثَرًا لِهيثْكْلِف.

إنْتابَ كاثْرين القَلَقُ، ثُمَّ أصابَها الذُّعْرُ، فَأخَذَتْ تَجْري في الخارِجِ تَبْحَثُ بِنَفْسِها عَنْ هيثْكْلِف حَتّى ابْتَلَّتْ ثِيابُها بِالماءِ لِأنَّ المَطَرَ كانَ غَزيرًا، ثُمَّ عادَتْ إلى المَنْزِلِ وهِيَ تُفَكِّرُ بِمَصيرِ هيثْكْلِف. لَمْ تُبَدِّلْ ثِيابَها المُبْتَلَّةَ ورَفَضَتْ أنْ تَنامَ، فَأمْضَتِ اللَّيْلَ في غَمٍّ وكَدَرٍ وهِيَ جالِسَةٌ أمامَ المَوْقِدِ والبُخارُ يَتَصاعَدُ مِنْ ثِيابِها.

وَجَدَها هِنْدْلي في الصَّباحِ مَحْمومَةً وهِيَ تَرْتَعِشُ، وكانَتْ تَنْفَجِرُ صارِخَةً كُلَّما خاطَبَها أَحَدٌ. ثُمَّ ساءَتْ حالَتُها وأُخِذَتْ إلى الفِراشِ وقَدِ ارْتَفَعَتْ حَرارَتُها. ظَلَّتْ عَلى تِلْكَ الحالِ عِدَّةَ أَيّامٍ، وقَدْ لاحَظَتْ عَلَيْها إيلين ما جَعَلَها تَخْشى أَنْ تَفْقِدَ هٰذِهِ الفَتاةُ المَرِحَةُ عَقْلَها. لٰكِنَّ العِنايَةَ الَّتي بَذَلَها الطَّبيبُ ساعَدَتْ كاثْرين عَلى الشِّفاءِ. وقَدْ دَعَتِ السَّيِّدَةُ لِنْتون كاثْرين إلى قَضاءِ فَتْرَةِ نَقاهَةٍ في ثْراش غرانْج، لٰكِنَّ السَّيِّدَ والسَّيِّدَةَ لِنْتون أُصيبا بِعَدْوى الحُمّى، وسُرْعانَ ما فارَقا الحَياةَ واحِدًا بَعْدَ الآخَرِ.

تَأَثَّرَتْ كاثْرين بِمَوْتِ هٰذَيْنِ الصَّديقَيْنِ الطَّيِّبَيْنِ، فَعادَتْ إلى البَيْتِ وهِيَ في حالَةٍ مِنَ الاضْطِرابِ والهَذَيانِ. ثُمَّ أَخَذَتْ تُصابُ بِنَوْباتٍ مِنَ الغَضَبِ كُلَّما انْتُقِدَتْ أَوْ ذُكِرَ اسْمُ هيثْكْليف. وقَدْ نَصَحَ الطَّبيبُ بِمُداراتِها لِئَلّا تُجَنَّ.

زَواج كاثْرين وإدْغار

مَرَّتِ الأَيّامُ وكاثْرين دائِمَةُ التَّوْقِ لِهيثْكْليف، فيما كانَ إدْغار يَزْدادُ حُبًّا لَها واهْتِمامًا بِها. وفي آذارَ (مارس) مِنَ العامِ ١٧٨٣، أَيْ بَعْدَ حَوالَي ثَلاثِ سَنَواتٍ عَلى وَفاةِ السَّيِّدِ لِنْتون وزَوْجَتِهِ، عُقِدَ قِرانُ إدْغار لِنْتون وكاثْرين أَرْنْشو.

لَمْ تَكُنْ إيلين تَرْغَبُ في الانْتِقالِ مَعَ سَيِّدَتِها إلى بَيْتِها الجَديدِ في ثْراش غرانْج. لٰكِنْ لِأَنَّ واجِبَها الأَوَّلَ هُوَ خِدْمَةُ كاثْرين، فَإِنَّها انْتَقَلَتْ مَعَها حَزينَةً عَلى اضْطِرارِها لِتَرْكِ هيرْتون الصَّغيرِ - وقَدْ أَصْبَحَ في الخامِسَةِ - في رِعايَةِ أَبيهِ الفَظِّ هِنْدْلي والخادِمِ العَجوزِ جوزف. أَمّا هيثْكْليف فَكانَتْ أَخْبارُهُ قَدِ انْقَطَعَتْ مُنْذُ ما يَزيدُ عَلى ثَلاثَةِ أَعْوامٍ.

في ثْراش غرانْج، كانَتْ حَياةُ إدْغار وكاثْرين الزَّوْجِيَّةُ تَبْدو، في الظّاهِرِ، هادِئَةً، وكانَتْ تَنْتابُ كاثْرين أَيّامٌ مِنَ الكَآبَةِ وتَقَلُّبِ المِزاجِ.

كانَتْ إيلين يَوْمًا في المَطْبَخِ، فَلَمَحَتْ رَجُلًا غَريبًا يَقِفُ أَمامَ البابِ الخَلْفِيِّ، وسَمِعَتْ صَوْتًا مَأْلوفًا يُخاطِبُها: «أَهٰذِهِ أَنْتِ يا إيلين؟» أَجابَتْ بِصَوْتٍ لاهِثٍ:

«أجلْ. لَقَدْ عُدْتُ... أنتَ السَّيِّدُ هيثكْلِف!» فقالَ: «أجلْ أجلْ. هلْ سيِّدَتُكِ مَوْجودَةٌ؟ يَجِبُ أنْ أُكَلِّمَها.»

تأمَّلَتْهُ إيلِن وقَدْ بَدأَتْ تَسْتَفيقُ مِنَ الصَّدْمَةِ، وقالَتْ: «يا سَيِّدُ هيثكْلِف، لَقَدْ تَغَيَّرْتَ كَثيرًا! هَلْ كُنْتَ في الحَديقَةِ؟» فَلَمْ يُجِبْها هيثكْلِف، إنَّما قالَ: «اِذْهَبي وأخْبِريها. قولي لَها إنَّ شَخْصًا مِنَ القَرْيَةِ يُريدُ رُؤْيَتَها.»

وَقَعَتْ إيلِن في حَيْرَةٍ، فَقَدْ خَشِيَتْ أنْ تُؤَثِّرَ الصَّدْمَةُ على قُوى كاثي العَقْلِيَّةِ، ولٰكِنَّها كانَتْ راغِبَةً حقًّا في نَقْلِ رِسالَةِ هيثكْلِف. وقَدْ وَجَدَتِ السَّيِّدَ لِنتون وزَوْجَتَهُ كاثْرين في غُرْفَةِ الجُلوسِ يَتَناوَلانِ الشّايَ. فَقالَتْ: «عَفْوًا سَيِّدَتي، هُناكَ



رَجُلٌ مِنَ القَرْيَةِ يَطْلُبُ مُقابَلَتَكِ.» فَخَرَجَتْ كاثْرِين وهِيَ تَقولُ: «وما عَساهُ يُريد؟ إنّي لا أَنْتَظِرُ زِيارَةَ أَحَدٍ!»

عَوْدَة هيثْكْلِيف

بَعْدَ أَنْ خَرَجَتْ كاثْرِين رَأَتْ إيلين أَنَّ مِنْ واجِبِها إعْلامَ السَّيِّدِ لِنْتون بِالأَمْرِ، فَثارَتْ ثائِرَتُهُ وأَخَذَ يَصيحُ. «مَنْ؟ ذٰلِكَ الغَجَرِيُّ اللَّعينُ، ذٰلِكَ الفَلّاحُ القَذِرُ. لِماذا لَمْ تُنْذِري كاثْرِين؟» فَقالَتْ إيلين: «أَرْجوكَ يا سَيِّدي، لا تَصِفْهُ بِهٰذِهِ النُّعوتِ لِئَلّا تَغْضَبَ السَّيِّدَة. لَقَدِ انْكَسَرَ قَلْبُها وكادَتْ تُجَنُّ عِنْدَما رَحَل.»



في تِلْكَ اللَّحْظَةِ دَخَلَتْ كاثْرين الغُرْفَةَ وتَوَجَّهَتْ نَحْوَ زَوْجِها وطَوَّقَتْهُ بِيَدَيْها وهَتَفَتْ وهِيَ تَرْقُصُ مَرَحًا وخِفَّةً: «يا عَزيزي إدْغار، لَقَدْ عادَ هيثْكْليف!» فَأجابَ: «لكِنْ لا داعِيَ لِكُلِّ هذا الحَماسِ!»

- أعْرِفُ أنَّكَ لا تُحِبُّهُ. لكِنْ، إكْرامًا لي، عامِلْهُ كَصَديقٍ.. هَلْ أدْعوهُ لِلصُّعودِ إلى هُنا؟

- ألَيْسَ المَطْبَخُ مَكانًا أفْضَلَ لاسْتِقْبالِهِ؟

- لَنْ أجْلِسَ مَعَهُ في المَطْبَخِ. سَأطْلُبُ مِنْ إيلين أنْ تَدْعُوَهُ لِلصُّعودِ إلى هُنا لِتَناوُلِ الشّايِ مَعَنا ومَعَ إيزابِلّا.

صَعِدَ هيثْكْليف فاسْتَقْبَلَتْهُ كاثْرين بِحَماسٍ بالِغٍ، وحَمَلَتْ إدْغار على مُصافَحَتِهِ وقَدْ فوجِئَ الاثْنانِ بِوَسامَتِهِ ومِشْيَتِهِ العَسْكَرِيَّةِ المَهيبَةِ. ولاحَظَتْ كاثْرين كَيْفَ أنَّ قامَتَهُ الشّامِخَةَ أظْهَرَتْ ضَعْفَ قامَةِ إدْغار. وبَدا هيثْكْليف ذا شَخْصِيَّةٍ مُتَمَيِّزَةٍ واضِحَةٍ مَعَ أنَّ تَصَرُّفاتِهِ وأقْوالَهُ تَحْمِلُ آثارًا بَعيدَةً مِنْ ماضيهِ كَعامِلٍ في المَزْرَعَةِ.

احْتارَ إدْغار في ما يَقولُهُ، فَرَحَّبَ بِهِ قائِلًا: «تَفَضَّلْ... اجْلِسْ يا سَيِّدي. إنَّ السَّيِّدَةَ لِنْتون تَرْغَبُ في أنْ تَسْتَقْبِلَكَ بِحَفاوَةٍ، وأنا لا أرْفُضُ لَها طَلَبًا.»

لَمْ تَرْفَعْ كاثْرين نَظَرَها عَنْ هيثْكْليف وهِيَ غَيْرُ مُصَدِّقَةٍ أنَّها تَراهُ أمامَها، ثُمَّ قالَتْ: «إنَّني في حُلْمٍ الآنَ. لكِنْ لِمَ كُلُّ هذا الجَفاءِ؟ لَقَدْ عِشْتَ ثَلاثَ سَنَواتٍ ولَمْ يَصِلْنا خَبَرٌ مِنْكَ.» فَأجابَ: «إنَّني لَمْ أنْقَطِعْ عَنِ التَّفْكيرِ بِكِ. لَقَدْ سَمِعْتُ بِخَبَرِ زَواجِكُما وجِئْتُ لِأُهَنِّئَكُما. ثُمَّ إنَّني كُنْتُ أنْوي تَسْوِيَةَ مَسْألَةٍ مَعَ هِنْدْلي. لكِنْ بَعْدَ رُؤْيَتِكِ غَيَّرْتُ رَأْيي.»

بَعْدَ الانْتِهاءِ مِنْ شُرْبِ الشّايِ أفادَ هيثْكْليف بِأنَّهُ سَيَعودُ إلى مُرْتَفَعاتِ وِذِرِنْغ كَضَيْفٍ على هِنْدْلي. والواقِعُ أنَّهُ بَعْدَ أنْ أصْبَحَ يَمْلِكُ مالًا رَحَّبَ بِهِ هِنْدْلي لِيَتَسَنّى لَهُما لَعِبُ القِمارِ بِالوَرَقِ مَساءً. وقَدْ لاقى ذلِكَ هَوًى في نَفْسِ هيثْكْليف لِأنَّهُ سَيَكونُ قَريبًا مِنْ كاثْرين.

هيثكْلِف يُخطِّط لِأَمْرٍ ما

أخذ هيثكْلِف يزورُ آل لنتون باستمرارٍ. كانتْ كاثْرين تُخفِّفُ مِنْ إظهارِ حماسِها وانفعالِها أمامَه، ولَمْ يَبْدُ إدغار انزعاجًا لتجدُّدِ الصَّداقةِ بين زَوْجتِهِ وهيثكْلِف. ثُمَّ برزتْ فجأةً مُشكلةٌ هزّتْ عائلةَ لنتون: فإيزابلّا، الفتاةُ الجميلةُ ذاتُ الثَّمانيةَ عشرَ ربيعًا، وقعتْ في حُبِّ هيثكْلِف مِنْ دونِ أنْ يدري. ولمّا أخفقتْ في لفتِ انتباهه سيْطرَ عليْها اليأْسُ والغضبُ. وقد انفجرتْ مرّةً في وَجْه كاثْرين مُتَّهِمةً إيّاها بأنّها سببُ آلامِها، إذْ قالَتْ: «إنَّكِ أنانيّةٌ حَقيرةٌ، يا كاثْرين، وتُحاولينَ الاستئثارَ بحُبِّ هيثكْلِف لَكِ وَحْدَكِ.» فأجابَتْها كاثْرين بغضبٍ شَديدٍ: «يا لَوَقاحَتِكِ! إنَّكِ غبيَّةٌ بلهاءُ. أنْتِ لا تَعْرفينَ شَيْئًا عَنْ هيثكْلِف، فَهُوَ قادِرٌ عَلى الإيقاعِ بِكِ والتَّزوُّجِ مِنْكِ طمعًا بمالِكِ حتّى ولَوْ لَمْ يَكُنْ يُحِبُّكِ.»

عِنْدما جاءَ هيثكْلِف في اليَوْمِ التّالي، قرّرتْ كاثْرين أنْ تهزأَ بإيزابلّا، فخاطبتْه قائلةً: «إنَّ أختَ زوجي الصَّغيرةَ تهيمُ بحُبِّكَ.» فما كانَ مِنْ إيزابلّا إلّا أنِ احمرَّتْ خجلًا وغادرتِ الغُرْفةَ.

علّق هيثكْلِف قائلًا: «لا داعيَ لإحراجِ الفتاةِ بهذا الشَّكْلِ! لَمْ تكوني جادّةً فيما قُلْتِهِ، أليسَ كذلكَ؟» فأجابَتْهُ بأنّها كانتْ تقولُ الحقيقةَ. أطرقَ هيثكْلِف مُفكِّرًا، ثُمَّ سألَها: «أليستْ إيزابلّا وريثةَ أخيها؟» أجابَتْ كاثْرين: «إلّا إذا أنجبْتُ أنا. إنّني أتمنّى أنْ أُرزقَ ستّةَ أوْلادٍ يُبْعِدونَ عنْه أيَّ إمْكانيّةٍ لِيَرِثَ شيئًا.» ثُمَّ خرجَتْ مِنَ الغُرْفةِ فيما ارْتَسَمَتْ على شَفَتَيْ هيثكْلِف ابْتِسامةٌ خبيثةٌ.

هيثكْلِف يَبْدأُ بِالعَمَل

كانَتْ نِلي يَوْمًا عائدةً مِنَ القرْيةِ، فمرَّتْ قُرْبَ مُرْتفعاتِ وذرنغ، وأرادَتْ أنْ تقومَ بزيارةٍ لِهِنْدْلي رفيقِ صِباها مُنْذُ عِشْرينَ سنةً. لَمّا اقْتربَتْ مِنَ البَوّابةِ رأتْ هيرْتون الصَّغيرَ يُحدِّقُ بها، لأنّهُ لَمْ يَعْرِفْها بالرَّغْمِ مِنْ أنّهُ لَمْ يَمْضِ على مُغادرتِها مُرْتفعاتِ وذرنغ سوى عشرةِ أشْهرٍ. التقطَ هيرْتون حَصاةً ورماها نحْوَها صائحًا: «اذْهبي مِنْ هُنا!» فطلبتْ مِنْهُ أنْ يُخْبِرَ أباهُ بأنّها مرّتْ وسألَتْ عنْهُ، لكنّهُ أجابَها بسَيْلٍ مِنَ الشَّتائمِ. فسألَتْهُ مُسْتغرِبةً: «مَنْ علَّمكَ كُلَّ هذِهِ الكَلِماتِ يا هيرْتون؟»

- هيثكْلِف بالطَّبْعِ.
- وهَلْ تُحِبُّ هيثكْلِف؟
- أُحِبُّ أنّهُ يقفُ في وجْهِ أبي عِنْدَما يُعاقِبُني، ويَشُدُّ وِثاقَهُ الشّاتِم

- ألا تَزالُ تَتَلَقّى دُروسَكَ عَلى يَدِ المُدَرِّس؟
كَلّا. فَهيثكْلِف لا يَسْمَحُ لَهُ بِدُخولِ مَنْزِلِه.

عِنْدها لمحتْ إيلين هيثكْلف يَخْرُجُ مِنْ باب المنْزل، فقرّرتْ ألّا تُواجِهَهُ، وانْسحبتْ بِسُرْعَةٍ.

بَعْدَ أيّامٍ قام هيثكْلِف بِزيارةٍ جديدةٍ الى ثرَاش غرانْج. كانتْ إيلين داخل المطْبَخ وراء النّافذة، فرأتْ إيزابلّا تَخْرُجُ لِلقائه فرحَةً وتُمْسِكُ يَدهُ وتَتلقّى مِنْهُ قُبْلَةً. فأحسّتْ إيلين أنّ من واجبها يقضي بإبْلاغ كاثْرين هذا الأمْرَ. فذهبتْ وقالتْ لها: «إنّ هيثكْلف خبيثٌ حقّاً. لقدْ قال إنّهُ لا يَهْتَمُّ بِأمْرِ إيزابلّا، لٰكنّهُ يتوَدّدُ إلَيْها!»

وما انْ دخل هيثكْلف المنْزل حتّى واجهَتْهُ كاثْرين بِكُلّ صراحةٍ قائلةً: «لقدْ طلبتُ منْكَ أنْ تَتْرُكَ إيزابلّا وشأْنها.»
- هٰذا أمْرٌ لا يَعْنيك. لقدْ عامَلْتِني بِقَسْوةٍ وكراهيةٍ، وأنا لا أُصدّقُ كلامكِ المعْسول، والأجْدرُ بي أنْ أسْعى للانْتقام.
- أنْت مُخْطئٌ. إنّي لمْ أُسِئْ مُعاملتك يوْمًا.
- لٰكِنّكِ حطّمْتِ قلْبي وبدّدْتِ آمالي. لنْ أقفَ مكْتوفَ اليدَيْن.
- وهلْ تَنْتقِمُ إذا خَصَمْتَ إدْغار وخدعْتَ إيزابلّا؟

بعْدَ هٰذا الحَديثِ ذهبتْ إيلين إلى غُرْفة إدْغار وأعْلمَتْهُ بِما يَجْري، فَجُنَّ جُنونُهُ وقال: «هٰذا لا يُطاقُ. ليْستْ كاثْرين مُضْطرّةً لِتحمُّلِ دناءة هذا الحقير. اسْتدْعي اثْنَيْن مِن الخدم يا إيلين.»
انْدَفَعَ إدْغار إلى المطْبخِ حَيْثُ وَجَد كاثْرين وهيثكْلف يتناقشان بجدّيّةٍ، فخاطَبَ هيثكْلف قائلًا: «لقدْ عاملْتُكَ بلُطْفٍ لا تسْتحِقُّهُ... أمّا الآن، فقدْ طفح الكَيْلُ، عليْكَ مُغادرةُ البَيْت حالًا وإلّا رماك رجالي خارجًا.»
تَعَجّبتْ كاثْرين مِنْ هٰذا المَوْقِفِ المُفاجِئ، فأقْفلتِ الباب بسُرْعَةٍ ورمتِ المفْتاحَ في النّار، وصرختْ بِوَجْه إدْغار: «كُنْ مُنْصفًا، يا إدْغار، وأكْمِلْ واجبك



حَتّى النِّهايَةِ. لَقَدْ كُنْتُ أُدافِعُ عَنْكَ، فَلِمَ لا تُدافِعُ أَنْتَ عَنْ سُمْعَةِ عائِلَتِكَ!»

اُمْتُقِعَ لَوْنُ إدْغار وارْتَمى عَلى كُرْسِيٍّ ودَنا مِنْهُ هِثْكْلِف مُهَدِّدًا «لَنْ أَتَنازَلَ وأُصْفِعَكَ، لٰكِنْ بِوُدّي أَنْ أَرْكُلَكَ بِرِجْلي.» وقَدْ فاجَأَ إدْغار الجَميعَ عِنْدَما هَبَّ واقِفًا وسَدَّدَ لَكْمَةً قَوِيَّةً أَصابَتْ عُنُقَ هِثْكْلِف فَسَبَّبَتْ لَهُ شَهْقَةَ أَلَمٍ. ثُمَّ انْطَلَقَ مِنَ البابِ الخَلْفِيِّ ونادى الخادِمَيْنِ اللَّذَيْنِ دَخَلا مُسْرِعَيْنِ وفي يَدِ كُلٍّ مِنْهُما هِراوَةٌ، لٰكِنَّ هِثْكْلِف تَصَرَّفَ بِسُرْعَةٍ فَحَطَّمَ البابَ المُقْفَلَ وهَرَبَ قَبْلَ أَنْ يَصِلا.

صُعِقَتْ كاثْرين وتوجّهتْ فوْرًا إلى غُرْفةِ الجُلوسِ في الطّبَقةِ العُليا بِصُحْبَةِ إيلين. قالتْ لها: «إنّي مُنْدهِشةٌ يا إيلين! إنّ رأسي يكادُ ينْشقُّ! إذا خسِرْتُ صداقةَ هيثْكْلِف وإذا تصرّفَ إدْغار بغباءٍ وغيْرَةٍ فسأُحطّمُ قلْبَ كُلٍّ مِنْهُما!»

ثُمّ جاءَ إدْغار فخاطبتْهُ كاثْرين قائِلةً: «بالله عليْكَ، اتْرُكْني وحْدي»، فقالَ لها: «إحْرِمي أمْرَكِ. عليْكِ أنْ تتخلَّيْ عنْ أحَدِنا، فإمّا أنا وإمّا هيثْكْلِف.» رَمتْ كاثْرين نفْسَها على الأريكةِ وأخذتْ تضْرِبُ رأْسَها على طرَفِها الخشَبيِّ. ثُمّ خمدتْ أوْصالُها فيما أخذتْ حدقتا عيْنَيْها تدورانِ كأنّ نوْبةً ما قدْ أصابتْها.

كانتْ إيلين حيرةً بأمورِ كاثْرين وتصرّفاتِها، فهمستْ في أُذُنِ السّيِّدِ لِنْتون: «إنّ كاثي تتظاهرُ بأنّها في نوْبةِ جُنونٍ»، فسمعتْها كاثي وأطْلقتْ صرْخةَ غضَبٍ، واندفعتْ نحْوَ حُجْرةِ النّوْمِ المُجاورةِ وأقْفلتِ البابَ وراءَها. مكثتْ في الدّاخِلِ يوْمَيْنِ منْ دونِ أنْ تُجيبَ نداءَ أحدٍ أوْ أنْ تأْكُلَ شيْئًا. لكنّها، في اليوْمِ الثّالثِ، فتحتِ البابَ وطلبَتِ الطّعامَ والشّرابَ منْ إيلين.

في غُضونِ ذلِكَ، كانتْ إيزابِلّا تذْرَعُ غُرْفتَها جيئةً وذهابًا أوْ تتمشّى في الحديقةِ. أمّا إدْغار فقدْ حاوَلَ أنْ ينْسى همومَهُ بقراءةِ كُتُبِهِ.

ارْتاعتْ إيلين لحالةِ كاثْرين، فوجْهُها الجميلُ كانَ ذابِلًا، وشعْرُها أصْبحَ مُشعّثًا، وغدتْ تصرّفاتُها غريبةً وحادّةً. سألتْها كاثْرين:

- ماذا يفعلُ السّيِّدُ لِنْتون؟ لا أحدَ يهتمُّ بي هُنا، وأنا على وشْكِ الموْتِ!

- لا يا عزيزتي! لقدْ تحسّنتْ حالُكِ، وها إنّكِ تأْكُلينَ! على كُلِّ حالٍ، السّيِّدُ لِنْتون غارقٌ في كُتُبِهِ.

- الكُتُبُ! يهْتمُّ بالكُتُبِ ويتْرُكُني وحيدةً وأنا على وشْكِ الموْتِ!

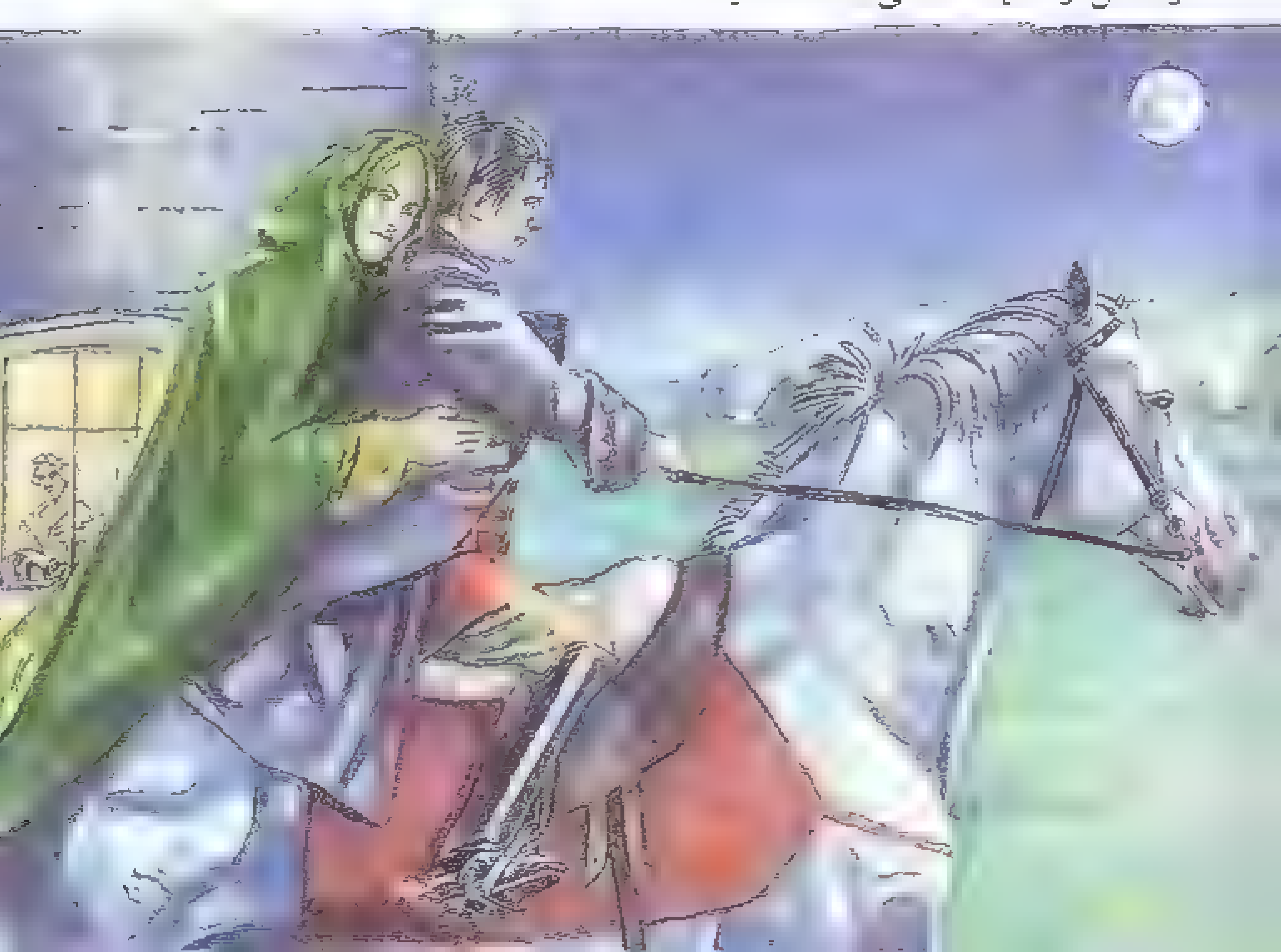
وهُنا عراها الاضطرابُ والتّشنُّجُ، وارْتمتْ على السّريرِ، وأخذتْ تُمزِّقُ الوِسادةَ بأسْنانِها. عنْدها أدْركتْ إيلين أنّ المسْكينةَ كانتْ في حالةِ اضْطرابٍ شديدٍ، فأسْرعتْ إلى الدّوْرِ السُّفْليِّ لتُرْسِلَ أحدَ الخدمِ لاسْتدْعاءِ الطّبيبِ.

فِرار إيزابِلّا مَعَ هيثكْليف

عِنْدَما فَتَحَتْ نِيلي بابَ المَطْبَخِ هالَها أَنْ تَرى كَلْبَ الآنِسَةِ إيزابِلّا مُعَلَّقًا بِرَقَبَتِهِ ومَرْبوطًا بِخُطّافٍ على الحائِطِ، فَفَكَّتِ الحَبْلَ في آخِرِ لَحْظَةٍ. ثُمَّ تَناهى إلى سَمْعِها صَوْتُ جِيادٍ خارِجَ المَنْزِلِ. بَعْدَ ذَلِكَ وَصَلَ الطَّبيبُ، وأَفادَ أَنَّهُ يَتَخَوَّفُ مِنْ أَنْ تُصابَ كاثْرين بِحُمّى في دِماغِها، فَأَمَرَ لَها بِالرّاحَةِ التّامَّةِ والنَّوْمِ. وما إِنْ غادَرَ الطَّبيبُ حَتّى دَخَلَتْ إِحْدى الخادِماتِ غُرْفَةَ سَيِّدِها مَذْعورَةً وهَتَفَتْ: «لَقَدْ ذَهَبَتْ! إيزابِلّا فَرَّتْ مَعَ هيثكْليف. لَقَدْ رَآهُما النّاسُ في القَرْيَةِ.»

تَلَقّى إِدْغار لِنْتون النَّبَأَ بِهُدوءٍ مُسْتَغْرَبٍ، وقالَ: «لَقَدْ ذَهَبَتْ مِنْ دونِ مُوافَقَتي. إِنَّها شَقيقَتي بِالاسْمِ فَقَطْ، فَأَنا أَتَبَرَّأُ مِنْها، ولَنْ أَراها بَعْدَ الآنَ.»

لَمْ تَكُنْ حالَةُ كاثْرين تَسْمَحُ بِإِطْلاعِها على ما حَدَثَ. فَقَدْ ظَلَّتْ على شَفيرِ المَوْتِ أَسابيعَ عَديدَةً. لَكِنَّ زَوْجَها أَحاطَها بِمَحَبَّتِهِ وعِنايَتِهِ، فَاسْتَعادَتْ رُشْدَها وتَحَسَّنَ وَضْعُها الصِّحِّيُّ تَحَسُّنًا طَفيفًا



لَمْ تَتَمَكَّنْ كاثْرين مِنْ مُغادَرَةِ غُرْفَتِها إلّا بَعْدَ عِدَّةِ أَشْهُرٍ، أَيْ في شَهْرِ آذارَ (مارس) مِنَ العامِ ١٧٨٤. كانَ إِدْغار يَدْعو اللهَ لِشِفائِها التّامِّ لِأَنَّها حامِلٌ ويُتَوَقَّعُ أَنْ تَلِدَ بَعْدَ شَهْرٍ.

بَعَثَتْ إيزابِلّا، بَعْدَ سِتَّةِ أَشْهُرٍ مِنْ فِرارِها، بِرِسالَةٍ إِلى شَقيقِها، لكِنَّهُ لَمْ يَكْتُبْ لَها. بَعْدَ ذلِكَ كَتَبَتْ رِسالَةً لإِيلِين أَخْبَرَتْها فيها بِأَنَّها قَدْ عادَتْ مَعَ هيثْكْليف إِلى مُرْتَفَعاتِ وِدِرِنْغ وأَطْلَعَتْ إيلِين عَلى يَأْسِها مِنَ الحَياةِ مَعَ هيثْكْليف، وعَلى الحالَةِ المُزْرِيَةِ السّائِدَةِ في البَيْتِ. كانَ هيرْتون الصَّغيرُ قَدْ غَدا إِنْسانًا شَرِسًا، أَمّا هِنْدْلي أَرْنْشو فَقَدْ أَصْبَحَ سِكّيرًا مُدْمِنًا يَقْضي كُلَّ أَوْقاتِهِ في الشَّرابِ وفي المُقامَرَةِ مَعَ هيثْكْليف، حَتّى إِنَّهُ اضْطُرَّ لِرَهْنِ أَمْلاكِهِ لِهيثْكْليف تَغْطِيَةً لِدُيونِهِ.

طَلَبَتْ إيزابِلّا مِنْ إيلِين، أَنْ تَزورَها. وقَدْ سَمَحَ لَها إِدْغار بِالذَّهابِ، أَمّا هُوَ فَلَمْ يُرِدْ أَنْ يَكونَ لَهُ أَيُّ عَلاقَةٍ بِجَميعِ أَفْرادِ عائِلَةِ هيثْكْليف. هكَذا ذَهَبَتْ إيلِين إِلى مُرْتَفَعاتِ وِدِرِنْغ حَيْثُ صُعِقَتْ لِمُلاحَظَتِها الإِهْمالَ المُسَيْطِرَ عَلى أَرْجاءِ المَنْزِلِ حَتّى إِنَّ إيزابِلّا نَفْسَها بَدَتْ حائِرَةً، بَقُوى شاحِبَةَ الوَجْهِ مُشَعَّثَةَ الشَّعْرِ فيما ظَهَرَ هيثْكْليف بِكامِلِ أَناقَتِهِ، وكَأَنَّهُ مِنْ طَبَقَةِ النُّبَلاءِ أَبًا عَنْ جَدٍّ.

زِيارَةُ هيثْكْليف

عِنْدَما عَلِمَ هيثْكْليف، بِمَرَضِ كاثْرين واضْطِرابِها النَّفْسِيِّ حادَثَ إيلِين مُتَوَسِّلًا. «يَجِبُ أَنْ أَراها... لا بُدَّ أَنْ أَزورَها.»

هذا مُسْتَحيلٌ! إِنَّها لا تَحْتَمِلُ الصَّدْمَةَ. فَقَدْ تُؤَدّي بِها إِلى الجُنونِ أَوِ المَوْتِ.

لَنْ تُفاجَأَ إِذا أَعْلَمْتِها مُسْبَقًا. وإِذا لَمْ تُسَهِّلي لِيَ الأَمْرَ اقْتَحَمْتُ المَنْزِلَ.

أَدْرَكَتْ إيلِين أَنَّ هيثْكْليف جادٌّ في تَهْديدِهِ، فَقَبِلَتْ - عَلى مَضَضٍ - بِأَخْذِ رِسالَةٍ لِكاثْرين، ووَعَدَتْهُ بِإِبْلاغِهِ مَتى يَكونُ إِدْغار خارِجَ المَنْزِلِ.

بَعْدَ عِدَّةِ أَيّامٍ، لَمْ يَكُنْ إِدْغار لِنْتون في البَيْتِ، فَأَخَذَتْ إيلِين رِسالَةَ هيثْكْليف لِكاثْرين ومَعَ أَنَّها كانَتْ قَدْ تَحَسَّنَتْ، فَإِنَّها، لِلْوَهْلَةِ الأُولى، لَمْ تَفْهَمْ ما هِيَ

الرِّسالَةِ. فَشَرَحَتْ لَهُ إيلين: «إنَّ هيثكْليف قَدْ عادَ ثانِيَةً، وهُوَ مُصَمِّمٌ على مُقابَلَتِكِ. إنَّهُ يَعْلَمُ أنَّ زَوْجَكِ غَيْرُ مَوْجودٍ، ولا بُدَّ أنَّهُ الآنَ يَنْتَظِرُني في الحَديقَةِ.»

بَعْدَ لَحَظاتٍ كانَ هيثكْليف داخِلَ الغُرْفَةِ. طَوَّقَ كاثْرين بِذِراعَيْهِ، وأَخَذَ الاثْنانِ يَذْرِفانِ الدُّموعَ. خَرَجَتْ إيلين فيما بَقِيا مُتَعانِقَيْنِ، ثُمَّ تَراجَعَ هيثكْليف ورَأى أَماراتِ التَّعَبِ على وَجْهِها، فَقالَ: «يا حَياتي يا كاثي، ماذا حَدَثَ لَكِ؟»



ارتمت كاثرين على مقعدها منهارة، وأجهشت وهي تقول: «أنت وإدغار تركتما قلبي وحطمتماه. لقد قضيتما عليّ. أتمنى أن أضمك بقبضتي حتى تموت معي. أنت أيضًا تستحق العذاب... لكني على يقين من أنك ستنساني.»

صاح هيثكليف بحشرجة الأرواح: «لا تعذبيني! أنت على يقين من أني لن أنساك. وإذا قضيتِ، سيكون ذلك في عمري عذابًا متواصلًا.»

- ستظلين معي دائمًا. أنت جزء من روحي، وسآخذك معي إلى القبر.

فأمسكها بكلتا يديه، وهو يتفحص ألمها وأساها، وتنهد قائلًا: «لقد تزوجتِ



إدغار؟ لقد جنيتِ على نفسكِ بسببِ شعورِكِ العابرِ نحوَهُ، ونسيتِ أمرًا وهذهِ غلطةُ عمرِكِ!» أجابتهُ والدموعُ تملأُ عينيها: «لكنّكَ تركتني ورحلتَ!»

هنا دخلتْ إيلين الغرفةَ ونبّهتهم إلى وصولِ السيّدِ لِنتون، فقال هيثكليف:

- عليَّ أنْ أذهبَ الآنَ، يا كاثي. لكنّي سأعودُ ثانيةً.

- كلّا، لا يمكنُ أنْ تذهبَ. إنّها المرّةُ الأخيرةُ التي أراكَ فيها. سأموتُ قريبًا... إنّها النهايةُ!

تمسّكَ واحدُهم بالآخرِ، وبدا أنّ كاثرين أُغميَ عليها بينَ يديهِ.

وصلَ إدغار لِنتون القاعةَ الكُبرى، وحدسَ حضورَ أمرٍ ما، فتوجّهَ رأسًا نحوَ غرفةِ زوجتِهِ. وقد هالَهُ ما رآهُ، فهجمَ نحوَ هيثكليف. لكنّ هيثكليف وضعَ كاثرين وهيَ فاقدةُ الوعيِ - على ذراعَيْ إدغار، وخاطبَهُ بلهجةٍ آمرةٍ: «تصرّفْ بشهامةٍ وإنسانيّةٍ. أنقذْ زوجتَكَ أوّلًا، وبعدَ ذلكَ نتكلّمُ.»

وفيما كانَ إدغار وإيلين يعتنيانِ بكاثرين انسلَّ هيثكليف خارجًا إلى الحديقةِ حيثُ مكثَ هناكَ.

كاثرين بعدَ كاثرين

عندما انتصفتْ تلكَ الليلةُ، وُلِدتْ طفلةٌ صغيرةٌ ضعيفةٌ، قبلَ أوانِها، وسُمّيتْ كاثرين على اسمِ أُمّها. وبعدَ ساعتَيْنِ على ولادتِها، ماتتِ الأمُّ وهيَ ذاهلةٌ عنْ غيابِ هيثكليف وحضورِ زوجِها. ظلَّ إدغار في الغرفةِ ساعاتٍ متواصلةً، قُربَ السريرِ، غارقٌ في حزنِهِ، وقدْ جفّتِ الدموعُ في عينيهِ وهوَ يتأمّلُ ملامحَ ذلكَ الجمالِ الذاوي الساكنِ في وجهِ زوجتِهِ الراحلةِ.

عندما خرجتْ إيلين إلى الحديقةِ لتنقُلَ الخبرَ المشؤومَ لهيثكليف، روّعتْها ردّةُ فعلِهِ، إذْ هبَّ يهذي: «فلتذهبي إلى الجحيمِ! لنْ تعرفَ روحُكِ الراحةَ ما دمتُ حيًّا يا كاثرين أرنشو. لقدِ اتّهمتِني بالتسبّبِ بموتِكِ. فلتسكنّي لعنتُكِ إذًا.»

بعدَ يومَيْنِ، دُفِنتْ كاثرين في مدفنٍ عندَ طرفِ مقبرةِ القريةِ، ولمْ يكنْ هناكَ منَ المشيّعينَ سوى زوجِها إدغار لِنتون وإيلين.

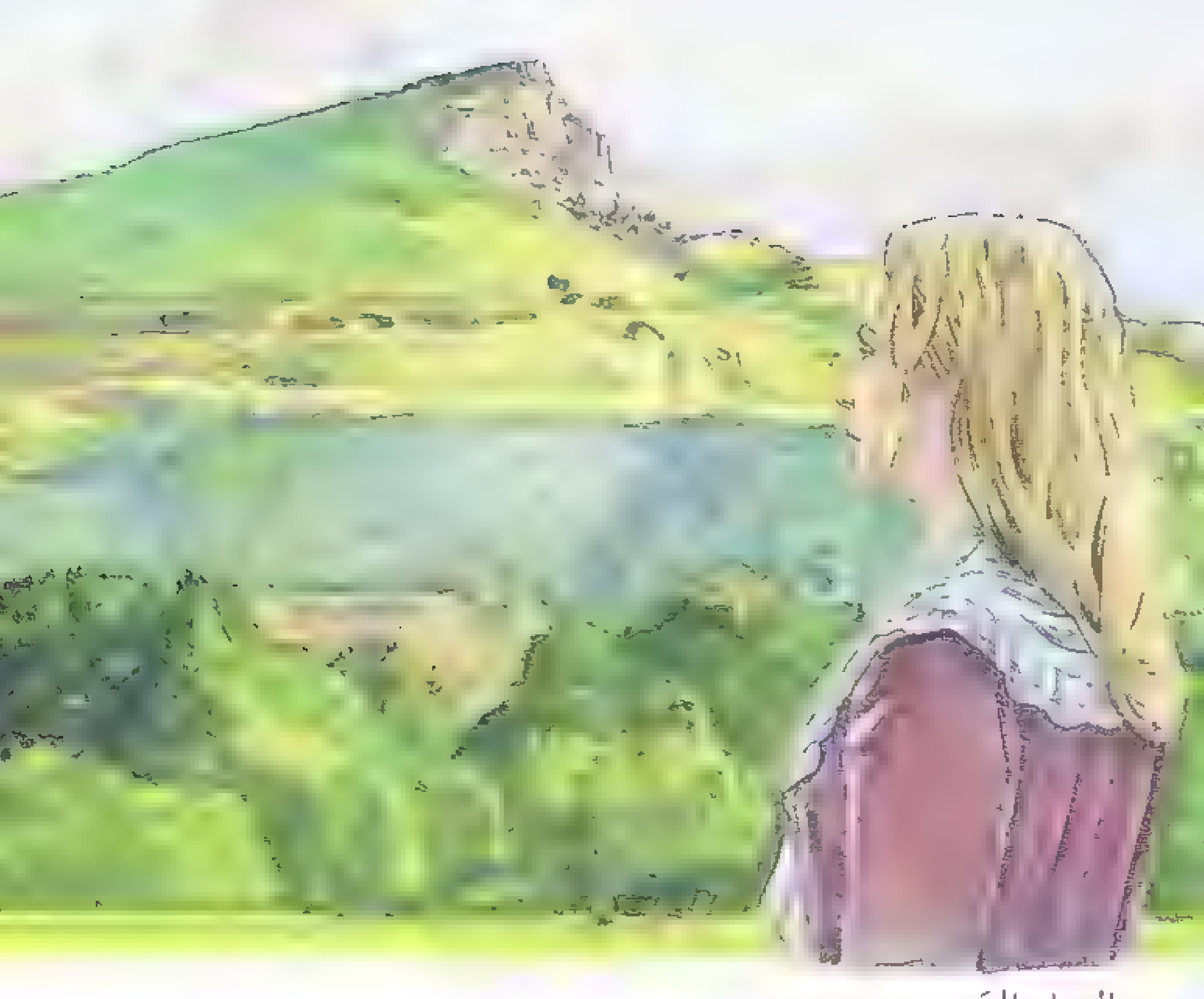
أخذتْ إيلين على عاتِقِها مُهِمّةَ رِعايَةِ تِلْكَ الطِّفْلَةِ الصَّغيرَةِ الرَّقيقَةِ كاثْرين، الّتي كانوا يُنادونَها كاثي. ولَمْ تَكُنْ دُموعُ إدْغار قَدْ جَفَّتْ حينَ أُصيبَ بِضَرْبَةٍ أُخْرى. فَقَدِ اضْطُرَّتْ أُخْتُهُ إيزابلا لِلْهُروبِ مِنْ بَيْتِ الجُنونِ والعَذابِ، مُرْتَفعاتِ وذِرِنْغ، إثْرَ تَهَجُّمِ هيثْكْلِف عَلَيْها ومُحاوَلَةِ قَتْلِها. وقَدْ مَرَّتْ على ثراش عرانْج لِشَرْحِ سُوءِ حالِها، لٰكِنَّها خافَتْ أَنْ تَبْقى في الجِوارِ، فغادَرَتْ إلى لندن. وبَعْدَ أسابيعَ وَلَدَتْ طِفْلًا أَسْمَتْهُ لِنتون هيثْكْلِف، وقَدْ عانَتْ كثيرًا مِنْ تَرْبِيَتِهِ ورِعايَتِهِ لِأَنَّهُ كانَ هَزِيلًا

في أَثْناءِ ذٰلِكَ، كانَتْ حالَةُ هِنْدْلي تَزْدادُ سُوءًا نَتيجَةً لِإدْمانِهِ الشَّرابَ. وقَدْ تَواجَهَ يَوْمًا وهيثْكْلِف وتَعارَكا بِشَراسَةٍ، فَأُصيبَ هِنْدْلي بِطَعْنَةِ سِكّينٍ. بَعْدَ ذٰلِكَ تَسارَعَتْ خُطُواتُهُ نَحْوَ نِهايَةٍ مُفْجِعَةٍ، فَماتَ وهُوَ غارِقٌ في شَرابِهِ وهُمومِهِ ولَمْ يَكُنْ قَدْ تَجاوَزَ السّابِعَةَ والعِشْرينَ. تَبَيَّنَ، بَعْدَ مَوْتِ هِنْدْلي، أَنَّهُ كانَ قَدْ رَهَنَ المَنْزِلَ لِهيثْكْلِف مُقابِلَ الدُّيونِ المُتَراكِمَةِ عَلَيْهِ.

فَكَّرَتْ إيلين بِالمُسْتَقْبَلِ القاتِمِ الّذي يَنْتَظِرُ هيرْتون الصَّغيرَ، فَحَثَّتِ السَّيِّدَ إدْغار لِنْتون عَلى أَنْ يَتَبَنّاهُ ويَنْتَشِلَهُ مِنْ بَراثِنِ مُرْتَفَعاتِ وذِرِنْغ حَيْثُ لا أَبَ لَهُ ولا أُمَّ ولا مُرَبِّيَة، وحَيْثُ سَيَتَحَكَّمُ بِهِ هيثْكْلِف الظّالِمُ، ولَنْ يُفيدَهُ وُجودُ العَجوزِ الأَبْلَهِ جوزف أَوِ الخادِمَةِ الطّاعِنَةِ في السِّنِّ زيلّا. لٰكِنَّ هيثْكْلِف رَفَضَ هٰذِهِ الفِكْرَةَ، إِنَّما تَمَسَّكَ بِهيرْتون التَّعِسِ وكانَ يَشْتَفي مِنْهُ قائِلًا لَهُ: «والآنَ أَصْبَحْتَ تَحْتَ رَحْمَتي أَيُّها الشَّقِيُّ. سَتَكونُ نِهايَتُكَ كَنِهايَةِ أَبيكَ.»

لَمْ يَسْتَطِعِ السَّيِّدُ لِنْتون وإيلين أَنْ يُنْقِذا هيرْتون. فَالميراثُ المَفْروضُ أَنْ يَؤولَ إِلَيْهِ ذَهَبَ إلى عَدُوِّ أَبيهِ، وكُتِبَ عَلَيْهِ أَنْ يَعيشَ مُهانًا في بَيْتِهِ ويُقاسِيَ كَما قاسى هيثْكْلِف في صِغَرِهِ، أَيْ أَنْ يُصْبِحَ خادِمًا ويُحْرَمَ المالَ والأَصْدِقاءَ والتَّعْليمَ.

وهٰكَذا مَرَّتِ السِّنونُ والعَداءُ قائِمٌ بَيْنَ أَهْلِ مُرْتَفعاتِ وذِرِنْغ وأَهْلِ ثراش غرانْج. ولَمْ يَكُنْ أَبْناءُ الجيلِ الجَديدِ عَلى عِلْمٍ بِكُلِّ الأُمورِ الّتي جَبَلَتِ العَداءَ بَيْنَ أَبْناءِ الجيلِ السّابِقِ وظَلَّتْ تُؤَثِّرُ عَلى حَياتِهِمْ هُمْ.



الجيل الجديد

لمّا أصبحت كاتي في الثالثة عشرة ظهرت عليها ملامح الجمال جليّة، إذ جمعت بين سواد عيون آل أرنشو وبياض ونضارة آل لنتون. كانت ذكيّة حسّاسة وتفيض حيويّة، لكنّها كانت تحمل من طباع المرحومة أمّها الثّقة العمياء بالنّفس والتّصميم العنيد. وقد تفانى والدها في رعايتها وبالغ في حمايتها حتّى إنّه لم يسمح لها بتجاوز حدود الحديقة. لكنّ قلبها كان يتوق إلى ما هو أبعد وهي تنظر بأمل وشغف إلى قمّة بنستون البعيدة، خصوصًا عندما كانت أشعّة شمس المغيب تسطع على صخورها بنورها الأحمر. وقد وعدت نفسها بأنّها ستذهب إلى هناك يومًا.

في هذه الأثناء ساءت صحةُ إيزابلا هيثكليف في لندن، فأحسّت بعدم قُدرتها على رعاية ابنها لِنتون الّذي كانَ – مثلَ كاثي – في الثّانية عشْرة. لذلك بعثت إيزابلا رسالةً لأخيها إدغار ورجتْهُ الاهتمامَ بأمرِ ابنها حتّى تستعيد عافيتها. وقد استجاب إدغار بدافع الواجب نحوَ أُختهِ المسكينة فذهب إلى لندن لزيارتها والتعرُّف إلى الصّبيِّ قبلَ إحضارِه إلى ثراش غرانج.

اغتنمت كاثي فُرصةَ غيابِ والدها فقفزت البنتُ على مُهرها للذهاب نحوَ قمّةِ بينستون الرّائعة. ولمّا طال غياب كاثي حتّى العصرِ خرجتْ إيلين للبحث عنها. ولدى مُرورِها قُربَ بوّابة مُرتفعات وذرنغ جاءت العجوزُ زيلا وهتفت: «يا سيّدةُ



دين! هلْ حتّى لِتُرافِقني الآنسةُ كاثي؟ إنّه هُنا، والسيّدُ هيثكْلِف غَيْرُ مَوْجودٍ.»

دَخَلَتْ إيلين إلى المَنْزِلِ، فَرَأَتْ كاثي جالِسةً على المَقْعَدِ الّذي كانَ فيما مَضى لِأُمِّهِ، وكانَتْ غارِقةً في الضَّحِكِ والحَديثِ مَعَ هيرْتون. وهٰذا الأخيرُ قدْ أصْبَحَ شابًّا قَوِيًّا في الثّامِنَةَ عَشْرَةَ. خاطَبَتْها إيلين بِعُنْفٍ قائِلَةً: «حَسَنًا يا ابْنَتي! لَنْ أَسْمَحَ لَكِ بِالخُروجِ مِنْ ثْراش غرانْج حَتّى يَعودَ والِدُكِ. لَنْ أَثِقَ بِوُعودِكِ ثانِيَةً.»

اسْتَغْرَبَتْ كاثي هٰذا المَوْقِفَ وأَجابَتْ بِهُدوءٍ: «لٰكِنّي قَضَيْتُ نَهارًا رائِعًا. لَقَدِ الْتَقَيْتُ بِهيرْتون ورافَقَني إلى قِمَّةِ بِنِسْتون وشاهَدْنا مَعالِمَ الطَّبيعَةِ الرّائِعَةِ...»

فَقاطَعَتْها إيلين حانِقَةً: «كَفى، أَرْجوكِ. ضَعي قُبَّعَتَكِ وتَعالَيْ مَعي في الحالِ.»

بِالرَّغْمِ مِنْ أَنَّ هٰذِهِ اللَّهْجَةَ لامَرْأَةٍ لَمْ تَرُقْ لِكاثي، فَإِنَّها انْصاعَتْ لِطَلَبِ إيلين، وتَوَجَّهَتْ إلى هيرْتون بِالكَلامِ: «أَحْضِرْ لي جَوادي، فَإِنَّنا ذاهِبَتانِ.»

انْتَفَضَ هيرْتون قائِلًا: «لَسْتُ خادِمًا عِنْدَكِ.» فَاسْتَدارَتْ كاثي نَحْوَ إيلين وقالَتْ: «إيلين! كَيْفَ يُخاطِبُني بِهٰذِهِ الطَّريقَةِ!»

هُنا تَدَخَّلَتْ زِيلا لِتَرْطيبِ الجَوِّ: «مَهْلًا يا ابْنَتي. لِمَ لا تُكَلِّميهِ بِلُطْفٍ، فَهيرْتون قَريبُكِ. إنَّهُ ابْنُ خالِكِ.» فَأَجابَتْ كاثي مُحْتَجَّةً: «كَلّا. فَقَريبي الوَحيدُ هُوَ ابْنُ عَمَّتي، وقَدْ ذَهَبَ أبي إلى لَنْدَن لِمُرافَقَتِهِ. إنَّهُ إنْسانٌ نَبيلٌ مُهَذَّبٌ ولَيْسَ قَطُّ مِثْلَ عامِلِ المَزْرَعَةِ هيرْتون.»

وهٰكَذا غادَرَتْ كاثي وهِيَ في قِمَّةِ الغَضَبِ. والحَقيقَةُ أَنَّ انْطِباعَها عَنْ هيرْتون لَمْ يَكُنْ بَعيدًا عَنِ الواقِعِ، إذْ إنَّهُ شابٌّ قَوِيُّ البُنْيَةِ يَتَكَلَّمُ ويَتَصَرَّفُ بِشَكْلٍ فَظٍّ شَرِسٍ، ويَتَعالى عَلى غَيْرِهِ بِأَنَفَةٍ وكِبْرِياءَ.

هيثكْلِف يُطالِبُ بِحَضانَتِه

في لَنْدَن، وَجَدَ إدْغار لِنْتون أَنَّ مَرَضَ أُخْتِهِ إيزابيلا أَخْطَرُ مِمّا يَظُنُّ. وقَدْ ساءَتْ حالَتُها وتُوُفِّيَتْ وهُوَ في المَدينَةِ، فَتَحَتَّمَ عَلَيْهِ أَنْ يَعودَ إلى يورْكْشِر مُصْطَحِبًا مَعَهُ الصَّبِيَّ لِنْتون هيثكْلِف.

بَعْدَ بِضْعَةِ أَيّامٍ، وَصَلَتِ العَرَبَةُ إِلى ثرُشْ غرَانْج بَعْدَ رِحْلَةٍ طَوِيلَةٍ شاقَّةٍ. وكانَ الفَتى السَّقيمُ لِنْتون نائِمًا، فَوُضِعَ، رَأْسًا، في الفِراشِ. وقَدْ رَحَّبَتْ كاثي بِفِكْرَةِ وُجودِهِ مَعَهُمْ في البَيْتِ، فَأَخَذَتْ تَهْتَمُّ بِهِ.

في مَساءِ اليَوْمِ التّالي، وَصَلَ العَجوزُ جوزِف قادِمًا مِنْ مُرْتَفَعاتِ وَذِرِنْغ، وخاطَبَ السَّيِّدَ لِنْتون قائِلًا: «لَقَدْ أَرْسَلَني سَيِّدُ هيثكْليف لِأَخْذِ ابْنِهِ. وعَلَيَّ أَلّا أَعودَ مِنْ دونِهِ.» فَأَجابَهُ: «هذا مُسْتَحيلٌ يا جوزِف، فَالصَّبِيُّ مَريضٌ واهِنُ القُوى، ولا يُمْكِنُ نَقْلُهُ البَتَّةَ.» فَعَلَّقَ جوزِف بِقَوْلِهِ: «إِذًا، سَيَأْتي سَيِّدي بِنَفْسِهِ غَدًا.»

عِنْدَما اسْتَيْقَظَ لِنْتون في الصَّباحِ قيلَ لَهُ إِنَّهُ سَيُؤْخَذُ إِلى بَيْتِ أَبيهِ، فَقالَ: «أَنا لا أَعْرِفُ أَبي. أُريدُ أَنْ أَظَلَّ هُنا.» خاطَبَتْهُ إيلين بِصَوْتٍ مُضْطَرِبٍ: «كَلّا يا



لِنْتون، إنَّ والِدَكَ يُريدُ عَوْدَتَكَ إِلَيْهِ.» فَرَدَّ مُحْتَجًّا: «لٰكِنَّ أُمّي لَمْ تَذْكُرْ شَيْئًا عَنْ والِدي. إِنَّما كانَتْ دائِمًا تَذْكُرُ خالي إِدْغار، وأَنا أُحِبُّهُ.» لٰكِنَّ لِنْتون المِسْكينَ اقْتَنَعَ، بَعْدَ لَأْيٍ شَديدٍ، بِمُرافَقَةِ إيلين لِلذَّهابِ إِلى بَيْتِ أَبيهِ.

تَظاهَرَ هيثْكْليف بِاللُّطْفِ والرِّقَّةِ وهُوَ يَسْتَقْبِلُهُما مُرَحِّبًا، وقالَ لإيلين: «أَشْكُرُكِ لِمُرافَقَتِكِ الصَّبِيَّ وإِعْفائي مِنْ عَناءِ إِحْضارِهِ بِنَفْسي.» ثُمَّ نَظَرَ إِلى ابْنِهِ وقَدْ عَلَتْ ثَغْرَهُ ابْتِسامَةُ الظَّفَرِ وقالَ: «يا لَلْمِسْكينِ! إِنَّهُ أَشَدُّ رِقَّةً وضَعْفًا مِمّا تَوَقَّعْتُ.»

قَبْلَ أَنْ تُغادِرَ إيلين المَنْزِلَ ناشَدَتِ السَّيِّدَ هيثْكْليف أَنْ يُعامِلَهُ بِلُطْفٍ، فَقالَ: «بِالطَّبْعِ سَأُعامِلُهُ بِرِقَّةٍ ولُطْفٍ، ولٰكِنْ مِنْ دونِ تَدَخُّلِ أَحَدٍ. إِنَّهُ ابْني والمالِكُ المُقْبِلُ لِأَمْلاكِ عائِلَةِ لِنْتون وأَمْلاكي، لِذٰلِكَ سَأُحيطُهُ بِرِعايَتي! قَريبًا سَيُضْطَرُّ أَفْرادُ عائِلَتَيْ أَرْنْشو ولِنْتون لِلعَمَلِ في حِراثَةِ أَرْضِ أَحْدِهِمْ لِلْحُصولِ عَلى أُجورٍ زَهيدَةٍ. سَتَرَيْنَ!» وفيما كانَتْ إيلين تُغادِرُ المَنْزِلَ كادَ قَلْبُها يَنْفَطِرُ وهِيَ تَسْمَعُ صُراخَ الصَّبِيِّ المِسْكينِ يُرَدِّدُ: «لا أُريدُ البَقاءَ هُنا. أُريدُ أَنْ أَذْهَبَ.»

دَهاءُ هيثْكْليف

مَرَّتِ الأَيّامُ والانْقِطاعُ حاصِلٌ بَيْنَ أَهْلِ البَيْتَيْنِ. ولٰكِنْ عِنْدَما أَصْبَحَ كُلٌّ مِنْ كاثي ولِنْتون في السّادِسَةَ عَشْرَةَ، الْتَقَتْ إيلين بِهيثْكْليف يَوْمًا، في المُروجِ، فَأَخْبَرَها أَنَّ الوَضْعَ الصِّحِّيَّ لِلوَلَدِ قَدْ تَحَسَّنَ، وطَلَبَ مِنْها مُساعَدَتَهُ عَلى الجَمْعِ بَيْنَ لِنْتون هيثْكْليف وكاثي.

أَطْرَقَتْ إيلين، ثُمَّ قالَتْ: «إِنَّني لا أَثِقُ بِنَواياكَ. لا بُدَّ أَنَّكَ تُدَبِّرُ خُطَّةً خَبيثَةً تُؤْذي بِها السَّيِّدَ لِنْتون.» ظَهَرَتْ عَلى شَفَتَيْ هيثْكْليف ابْتِسامَةٌ ماكِرَةٌ وهُوَ يُجيبُ: «كَلّا يا إيلين. إِنَّني، في الواقِعِ، أُؤَدّي خِدْمَةً لِلسَّيِّدِ لِنْتون. أَنا أُحاوِلُ أَنْ أُوَفِّرَ لَهُما فُرْصَةً لِلِقاءٍ عَلَّهُما يَتَحابّانِ ويَتَزَوَّجانِ. إِنَّ كاثي، كَما تَعْلَمينَ، لَنْ تَرِثَ شَيْئًا عِنْدَ مَوْتِ أَبيها.»



فوجئت إيلين بهذا الكلام وتساءلت: «لكن عند وفاة السيد إدغار لنتون سترث ابنته جميع أملاكه، أليس كذلك؟»

أجاب هيثكليف ونظرة الظفر تطير من عينيه: «إن وصية إدغار لنتون تنص على أن تؤول كل أملاكه إلى ابن شقيقته، أي إلى ابني، وبكلمة أخرى لي.»

يبدو أن إيلين وقعت تحت تأثير هيثكليف، فأحضرت كاثي يومًا إلى مرتفعات ودرينغ لتلقى لنتون. كانت كاثي متشوقة لمقابلة ابن عمتها الذي التقت به مرة واحدة وذلك يوم أحضره والده من لندن.

بعد أن تحدثت قليلاً، سألته كاثي: «ألا تحب أن تأتي يومًا إلى ثراش غرانج لزيارتي؟» فأجاب لنتون: «كلا، فالمسافة أربعة أميال، وسأتعب جدًّا إذا مشيت إلى هناك.» تدخل هيثكليف وقال: «لماذا لا تذهبان الآن في نزهة قصيرة؟» ولما

رَفَضَ لِنْتون ذٰلِكَ ذَهَبَتْ كاثي مَعَ هيرْتون يَتَمَشَّيانِ. ولَمْ يَغْضَبْ هيثْكْليف لِهٰذا الأَمْرِ، إِذْ رَأَى أَنَّ ذَهابَ كاثي مَعَ هيرْتون سَيُشْعِلُ نارَ الغَيْرَةِ في قَلْبِ لِنْتون.

لَمّا عادَ المُتَنَزِّهانِ لاحِقًا، تَوَقَّفا عِنْدَ مَدْخَلِ المَنْزِلِ لِتَفَحُّصِ النُّقوشِ المَحْفورَةِ عَلى الأَحْجارِ، وقَدِ اضْطُرَّ هيرْتون المِسْكينُ إِلى الاعْتِرافِ بِأَنَّهُ لا يُحْسِنُ القِراءَةَ. هُنا انْضَمَّ لِنْتون إِلَيْهِما وأَخَذَ يَهْزَأُ بِهيرْتون وبِجَهْلِهِ، فَغَضِبَ هذا الأَخيرُ وانْصَرَفَ. وقَدْ سُرَّ هيثْكْليف لِهٰذِهِ الإِهانَةِ الَّتي طالَتْ هيرْتون، وكَأَنَّهُ بِذٰلِكَ يَنْتَقِمُ لِنَفْسِهِ لأَنَّهُ كانَ يَتَعَرَّضُ لِمِثْلِ هٰذِهِ المَواقِفِ في هٰذا البَيْتِ بِالذّاتِ.

بَعْدَ عَوْدَةِ إِيلين وكاثي إِلى ثراش غرانْج ذَكَرَتْ إِيلين أَنَّهُما الْتَقَتا، عَرَضًا، هيثْكْليف وابْنَهُ لِنْتون. فَغَضِبَ السَّيِّدُ إِدْغار لِنْتون ومَنَعَ ابْنَتَهُ مِنَ الاقْتِرابِ مِنْ مَنْزِلِ هيثْكْليف ثانِيَةً. وقَدْ بَرْهَنَ بِمَوْقِفِهِ هٰذا عَلى أَنَّهُ لَمْ يَفْهَمْ أَنَّ مِنْ طَبْعِ كاثي عَدَمَ الرُّضوخِ لِلأَوامِرِ والتَّمَرُّدَ عَلَيْها، إِذْ أَخَذَتْ تَكْتُبُ رَسائِلَ الحُبِّ وتَبْعَثُها إِلى لِنْتون مَعَ الخَدَمِ. وعِنْدَما اكْتَشَفَتْ إِيلين أَمْرَ هٰذِهِ الرَّسائِلِ كَتَبَتْ لِلِنْتون هيثْكْليف طالِبَةً مِنْهُ التَّوَقُّفَ عَنْ تَبادُلِ الرَّسائِلِ مَعَ كاثي.

كاثي تَقَعُ في المِصْيَدَةِ

بَعْدَ حَوالى أُسْبوعٍ كانَتْ كاثي وإِيلين تَتَنَزَّهانِ في أَطْرافِ الحَديقَةِ فَصادَفَتا هيثْكْليف مُمْتَطِيًا جَوادَهُ يَمُرُّ عَلى الطَّريقِ خارِجَ السّورِ.

هَتَفَ هيثْكْليف بِصَوْتِهِ العَميقِ مُتَوَجِّهًا إِلى كاثي: «كَمْ تَسُرُّني رُؤْيَتُكِ يا آنِسَتي إِنّي قَلِقٌ بِشَأْنِ لِنْتون البائِسِ، فَهُوَ يَكادُ يَذوبُ شَوْقًا إِلَيْكِ. لَقَدْ ساءَتْ حالَتُهُ مُنْذُ تَوَقَّفْتِ عَنْ مُراسَلَتِهِ. لا تَسْتَغْرِبي، فَإِنّي عَلى عِلْمٍ بِأَمْرِ تِلْكَ الرَّسائِلِ. سَأَكونُ شاكِرًا لَكِ لَوْ قُمْتِ بِزِيارَتِهِ، إِنّي غَيْرُ مُطْمَئِنٍّ لأَنّي سَأَتْرُكُهُ في رِعايَةِ هيرْتون الجاهِلِ وجوزيف العَجوزِ. فَهَلّا تَكَرَّمْتِ بِزِيارَتِهِ؟» ثُمَّ انْحَنى بِأَدَبٍ غَيْرِ مَعْهودٍ مِنْهُ، وتابَعَ طَريقَهُ.

كانَتْ كاثي فَتاةً كَريمَةَ النَّفْسِ رَقيقَةَ القَلْبِ، فَقَرَّرَتْ أَنْ تَقومَ بِزِيارَةِ لِنْتون. ومِنْ حُسْنِ حَظِّها أَنَّ والِدَها كانَ مُلازِمًا فِراشَهُ بِسَبَبِ الزُّكامِ، فَلَمْ تَجِدْ صُعوبَةً في إِقْناعِ إيلين بِمُرافَقَتِها إلى مُرْتَفَعاتِ وذِرِنْغ.

وَجَدَتا لِنْتون في غايَةِ الغَضَبِ وكانَ يَتَذَمَّرُ مِنْ إِهْمالِ الجَميعِ لَهُ، وكالَ الشَّتائِمَ لِوالِدِهِ ولِهيرْتون لِأَنَّهُم يُعَذِّبانِهِ بِاسْتِمْرارٍ. قالَ لِكاثي: «إِنَّ والِدي يُثيرُ حَنَقي، فَهُو لا يَنْفَكُّ يَقولُ إِنَّكِ تَكْرَهينَني.»

- عَلى العَكْسِ. أَنا أُحِبُّكَ كَثيرًا، وكَمْ أَتَمَنّى لَوْ كُنْتَ أَخي.
- يَقولُ أَبي إِنَّكِ لَوْ كُنْتِ زَوْجَتي لَأَحْبَبْتِني أَكْثَرَ.

أَشُكُّ في ذٰلِكَ، فالأَزْواجُ عادَةً يَكْرَهونَ زَوْجاتِهِمْ. فَأَبوكَ نَفْسُهُ قَسا على أُمِّكَ إيزابيلّا وظَلَمَها، لِذٰلِكَ اضْطُرَّتِ المِسْكينَةُ إلى الهَرَبِ.

- هٰذا غَيْرُ صَحيحٍ!

بَلى، هٰذا ما حَدَثَ، وقَدْ أَكَّدَهُ لي أَبي.

حَسَنًا، سَأُخْبِرُكِ شَيْئًا: كانَتْ أُمُّكِ تَكْرَهُ أَباكِ وتُحِبُّ أَبي!

- أَيُّها الكاذِبُ الحَقيرُ. إِنّي أَكْرَهُكَ.

تَبِعَ هٰذِهِ المُناوَشَةَ الكَلامِيَّةَ لَحَظاتُ هُدوءٍ وصَمْتٍ. ثُمَّ افْتَرَقَ الاثْنانِ بَعْدَ أَنْ تَصالَحا.

بَعْدَ أَيّامٍ مَعْدودَةٍ، أُصيبَتْ إيلين بِزُكامٍ حادٍّ كالسَّيِّدِ إِدْغار، فاضْطُرَّتْ لِمُلازَمَةِ الفِراشِ مُدَّةَ ثَلاثَةِ أَسابيعَ، فَتَوَجَّبَ عَلى كاثي أَنْ تَهْتَمَّ بِأَمْرِ مَريضَيْنِ. وقَدْ قامَتْ بِهٰذِهِ المُهِمَّةِ بِنَجاحٍ مُقَسِّمَةً وَقْتَها بَيْنَهُما خِلالَ النَّهارِ، ومُتَسَلِّلَةً سِرًّا - في المَساءِ لِمُلاقاةِ لِنْتون.

في إِحْدى هٰذِهِ الزِّياراتِ، وكانَ هيثكْليف لا يَزالُ غائِبًا، كانَتْ كاثي تَجْلِسُ مَعَ لِنْتون قُبالَةَ النّارِ، وإذا بِهيرْتون يَقْتَحِمُ الغُرْفَةَ مَدْفوعًا بِغَيْرَتِهِ. ثُمَّ هاجَمَ لِنْتون ودَفَعَهُ إلى المَطْبَخِ، وأَقْفَلَ البابَ وأَخَذَ يَصيحُ: «اُخْرُجِ الآنَ إِنِ اسْتَطَعْتَ!»



ذُهِلَ لِنْتون وتَكَدَّرَ لِدَرَجَةٍ أَحَسَّ مَعَها بِضيقٍ في التَّنَفُّسِ، وانْتابَهُ دَوْرٌ مِنَ السُّعالِ المُتَواصِلِ. وقَدْ أَثارَ ذٰلِكَ قَلَقَ كاثي وحَتّى هيرْتون، فَاضْطُرَّ لِفَتْحِ البابِ ومُساعَدَةِ كاثي في نَقْلِ لِنْتون إلى فِراشِهِ

عِنْدَما عَلِمَ إِدْغار لِنْتون بِاتِّصالِ ابْنَتِهِ بِابْنِ عَمِّها، مَنَعَها - لِلمَرَّةِ الثّانِيَةِ - مِنَ الذَّهابِ إلى مُرْتَفَعاتِ وذِرِنْغ. ولٰكِنَّهُ، خَوْفًا مِنْ تَشْديدِ قَسْوَتِهِ عَلى ابْنَتِهِ، وافَقَ عَلى السَّماحِ لِلِنْتون بِزِيارَتِها في ثْراش غرانْج.

لَمْ يَكُنْ مَرَضُ إدْغار لِنْتون مُجَرَّدَ زُكامٍ بَسيطٍ، فَقَدْ أَخَذَتْ صِحَّتُهُ تَسوءُ بِشَكْلٍ خَطيرٍ. وهٰذا ما دَفَعَهُ إلى القَلَقِ على مُسْتَقْبَلِ كاثي، وظَنَّ أَنَّ خَيْرَ ضَمانٍ لِمُسْتَقْبَلِها يَكونُ بِزَواجِها مِنِ ابْنِ عَمَّتِها لِنْتون هيثْكْليف. فَأَرْسَلَ دَعْوَةً لِلِنْتون لِزِيارَةِ ثْراشْ غرانْج، لٰكِنَّهُ تَلَقَّى رِسالَةَ اعْتِذارٍ مِنْ لِنْتون لِأَنَّهُ مُتَوَعِّكٌ واقْتَرَحَ أَنْ يَلْتَقِيَ بِكاثي في المُروجِ قُرْبَ مُرْتَفَعاتِ وذرِنْغ. ومَعَ أَنَّ إدْغار ارْتابَ بِالأَمْرِ، فَقَدْ وافَقَ عَلى ذَهابِ ابْنَتِهِ.

ذَهَبَتْ إيلين وكاثي يَوْمَ الخَميسِ والْتَقَتا لِنْتون في بُقْعَةٍ ظَليلَةٍ قُرْبَ مَنْزِلِهِ، وقَدْ هالَهُما أَنْ تَرَياهُ في حالَةٍ مِنَ الإعْياءِ الشَّديدِ والاضْطِرابِ النَّفْسِيِّ. ما إنْ رَآهُما لِنْتون حَتّى ارْتَمى أَرْضًا عِنْدَ قَدَمَيْ كاثي صائِحًا: «أَرْجوكِ يا كاثي، إذا كُنْتِ تَكْرَهينَ والِدي، فَلا تَكْرَهيني. إنَّني خائِفٌ، ولا أَجْرُؤُ عَلى تَوْضيحِ الأَمْرِ... أَرْجوكِ وافِقي.» سَأَلَتْهُ كاثي، وقَدْ حَيَّرَها كَلامُهُ: «عَلامَ أُوافِقُ؟» فَتَمْتَمَ المِسْكينُ باكِيًا: «لا أَمْلِكُ الشَّجاعَةَ الكافِيَةَ لِإِخْبارِكِ.»

في تِلْكَ اللَّحْظَةِ جاءَ هيثْكْليف، وحَيّا إيلين وكاثي بِبُرودَةٍ وازْدِراءٍ، ثُمَّ قالَ: «أَصَحيحٌ أَنَّ إدْغار لِنْتون عَلى فِراشِ المَوْتِ؟ سَأُقَدِّرُ نُبْلَهُ وشَهامَتَهُ إذا رَحَلَ قَبْلَ ابْنِ أُخْتِهِ هٰذا.» ثُمَّ خاطَبَ ابْنَهُ بِوَحْشِيَّةٍ قائِلًا: «انْهَضْ يا وَلَدُ! لِماذا انْبَطَحْتَ عَلى الأَرْضِ هٰكَذا؟»

تَحامَلَ لِنْتون عَلى نَفْسِهِ وانْتَصَبَ عَلى رِجْلَيْهِ، لٰكِنَّهُ تَشَبَّثَ بِيَدِ كاثي وأَخَذَ يَتَوَسَّلُ: «ابْقَيْ مَعي يا كاثي! لَنْ أَذْهَبَ إلى البَيْتِ إلّا إذا رافَقْتِني.» فَانْبَرى هيثْكْليف وقالَ: «فَلْنَذْهَبْ كُلُّنا مَعَكَ.»

ما إنْ دَخَلَ الجَميعُ المَنْزِلَ حَتّى أَقْفَلَ هيثْكْليف البابَ، وقالَ: «سَتَبْقَيانِ لِتَناوُلِ الشّايِ. إنَّني وَحيدٌ وبِحاجَةٍ إلى مَنْ يُؤْنِسُني.» لٰكِنَّ كاثي حاوَلَتْ خَطْفَ المِفْتاحِ مِنْهُ، فَأَمْسَكَ مِعْصَمَها بِإِحْدى يَدَيْهِ وأَخَذَ يَكيلُ لَها الصَّفَعاتِ عَلى خَدَّيْها بِيَدِهِ الأُخْرى، وصاحَ قائِلًا: «إنَّني أَعْرِفُ كَيْفَ أُعاقِبُ البَناتِ العاصِياتِ. سَتَقْضِيانِ اللَّيْلَةَ عِنْدَنا. هُناكَ غُرْفَةٌ مُناسِبَةٌ لَكُما في الدَّوْرِ العُلْوِيِّ.»



أدْرَكَتْ إيلين وكاتي أنَّهُما احْتُجِزَتا وأنْ لا مَفَرَّ لَهُما، فَتَنَمْنَ عَلى مَضَضٍ بِانْتِظارِ الصَّباحِ. أُخِذَتْ كاتي، في السّابِعَةِ مِنْ صَباحِ اليَوْمِ التّالي، إلى الدَّوْرِ السُّفْلِيِّ، فيما ظَلَّتْ إيلين وَحْدَها أسيرَةً لِمُدَّةِ أَرْبَعَةِ أيّامٍ، وكانَ هيرْتون يَأْتيها بِالطَّعامِ إلى الغُرْفَةِ.

جاءَتْ زيلّا في اليَوْمِ الرّابِعِ وأخْبَرَتْها أنَّ هيثْكْلِف أطْلَقَ سَراحَها وأنَّ كاثي سَتَعودُ إلى ثْراش غرانْج لاحِقًا. لَمْ تَدْرِ إيلين كَيْفَ هَبَطَتِ السُّلَّمَ إلى غُرْفَةِ الجُلوسِ، حَيْثُ وَجَدَتْ لِنْتون وَحْدَهُ، فَسَأَلَتْهُ: «أيْنَ الآنِسَةُ كاثي؟» فَأجابَ: «إنَّها فَوْقُ. لَكِنَّها لَنْ تُرافِقَكِ، فَوالِدي يَقولُ إنَّها لَنْ تَذْهَبَ بِدوني بَعْدَ أنْ أصْبَحَتْ زَوْجَتي.» صَرَخَتْ إيلين مَذْعورَةً: «زَوْجَتُكَ؟ غَيْرُ مَعْقولٍ!» فَأوْضَحَ لِنْتون الأمْرَ بِقَوْلِهِ: «لَقَدْ تَزَوَّجْنا مُنْذُ يَوْمَيْنِ.. إنّي لا أتَحَمَّلُ بُكاءَها المُتَواصِلَ، لِذٰلِكَ تَرَكْتُها وَنَزَلْتُ إلى هُنا.»



خَرَجَتْ إيلين كَالتّائِهَةِ، وأسْرَعَتْ نَحْوَ ثراش غرانْج لِتَطْمَئِنَّ إلى حالَةِ السَّيِّدِ لِنْتون إذْ كانَتْ تَخْشَى أنْ يَكونَ قَدْ فارَقَ الحَياةَ. وقَدْ وَجَدَتْهُ حَيًّا، لكِنَّهُ كانَ قَدِ ازْدادَ نُحولًا وضَعْفًا. أَكَّدَتْ لَهُ إيلين أنَّ كاثي سَتَلْحَقُ بِها، وشَرَحَتْ كَيْفَ احْتَجَزَهُما هيثْكْليف قَسْرًا، لٰكِنَّها لَمْ تَذْكُرْ شَيْئًا عَنْ مَسْأَلَةِ الزَّواجِ خَوْفًا مِنْ تَأْثيرِ ذٰلِكَ عَلَيْهِ.

اِسْتَطاعَ إِدْغار لِنْتون، مَعَ شِدَّةِ ضَعْفِهِ، أنْ يَشْتَمَّ أنَّ هيثْكْليف يَرْسُمُ خُطَّةً شِرّيرَةً لِوَضْعِ يَدِهِ على أَمْوالِهِ وأَمْلاكِهِ، فَقَرَّرَ أنْ يُغَيِّرَ وَصِيَّتَهُ لِيَمْنَعَ حُدوثَ هذا الأَمْرِ. فَكَّرَ بِأنْ يَتْرُكَ كُلَّ ما يَمْلِكُ أَمانَةً لِكاثْرين تُفيدُ مِنْهُ ما دامَتْ حَيَّةً وتَؤُولُ إلى أَوْلادِها بَعْدَ مَماتِها، وبِذٰلِكَ يَقْطَعُ الدَّرْبَ عَلى وُصولِ أَمْلاكِهِ إلى يَدِ هيثْكْليف إذا ماتَ ابْنُهُ لِنْتون.

طَلَبَ إِدْغار مِنْ إيلين أنْ تَذْهَبَ فَوْرًا إلى مُحاميهِ السَّيِّدِ غرين وتُخْطِرَهُ بِوُجوبِ الحُضورِ بِسُرْعَةٍ. لٰكِنَّ المُحامِيَ تَباطَأَ بِالحُضورِ إلى ثراش غرانْج، ولَمْ يَأْتِ ذٰلِكَ المَساءَ سِوى كاثي الَّتي هَرَبَتْ مِنْ مُرْتَفَعاتِ وذِرِنْغ لِتَرى أَباها وقَدْ وَصَلَتْ وهُوَ يَلْفِظُ أَنْفاسَهُ الأَخيرَةَ.

وَصَلَ المُحامي في ساعَةٍ مُتَأَخِّرَةٍ مِنْ تِلْكَ اللَّيْلَةِ، بَعْدَ أنْ كانَ قَدْ عَرَّجَ عَلى مُرْتَفَعاتِ وذِرِنْغ، إذْ إنَّهُ باعَ نَفْسَهُ لِهيثْكْليف، وهذا هُوَ سَبَبُ تَأَخُّرِهِ المُتَعَمَّدِ. وَضَعَ السَّيِّدُ غرين يَدَهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ، وأَعْلَنَ أنَّ السَّيِّدَ لِنْتون هيثْكْليف أَصْبَحَ مالِكَ ثراش غرانْج، وهٰكَذا تَمَّ صَرْفُ جَميعِ الخَدَمِ بِاسْتِثْناءِ إيلين. وقَدْ أُقيمَتْ مَراسِمُ جِنازَةٍ بَسيطَةٍ لإِدْغار، ودُفِنَ إلى جانِبِ زَوْجَتِهِ كاثْرين عِنْدَ طَرَفِ مَقْبَرَةِ القَرْيَةِ.

جاءَ هيثْكْليف إلى ثراش غرانْج في اليَوْمِ التّالي، وأَخْبَرَ كاثي بِوُجوبِ العَوْدَةِ إلى مُرْتَفَعاتِ وذِرِنْغ والعَيْشِ مَعَ زَوْجِها لِنْتون لِأَنَّهُ يَنْوي تَأْجيرَ ثراش غرانْج.



أُمْنِيَّةُ هيثْكلِف الأَخيرَة

صَعِدَتْ كاثْرين إلى غُرْفَتِها لِتَوْضيبِ أَمْتِعَتِها، فَجَلسَ هيثْكلِف مَعَ إيلين يَشْكو هَمَّهُ، وقَدْ أَثارَ حَديثُهُ الفَزَعَ في قَلْبِ إيلين لِفَظاعَتِهِ. قالَ: «بِالأَمْسِ، راقَبْتُ الحَفّارَ وَهُوَ يُهَيِّئُ قَبْرَ السَّيِّدِ لِنْتون، وطَلَبْتُ مِنْهُ كَشْفَ غِطاءِ تابوتِ كاثْرين.. إنَّ وَجْهَها لا يَزالُ كَما كانَ! وقَبْلَ أَنْ يَرْجِعَ الحَفّارُ العَصا، فَكَكْتُ لَوْحَ جانِبِ التّابوتِ، لَيْسَ مِنْ جِهَةِ زَوْجِها اللَّعينِ. ثُمَّ دَفَعْتُ لَهُ مالًا لِكَيْ يَفْعَلَ الشَّيْءَ نَفْسَهُ بِتابوتي عِنْدَ مَوْتي وَيَضَعَني قُرْبَها وَيَسْحَبَ جانِبَيِ التّابوتَيْنِ. وهٰكَذا سَأَنْضَمُّ إلى حَبيبَتي كاثْرين في القَبْرِ. الآنَ يُمْكِنُني أَنْ أَموتَ مُطْمَئِنَّ البالِ.»

ثارَتْ إيلين بِوَجْهِهِ، وقَدْ هالَها ما سَمِعَتْ: «هٰذا حَرامٌ يا سَيِّدْ هيثْكلِف. لا يَجوزُ إقْلاقُ راحَةِ المَوْتى بِهٰذا الشَّكْلِ!» فَأَجابَها: «أنا لَمْ أُقْلِقْ راحَةَ أَحَدٍ. كُلُّ ما فَعَلْتُهُ هُوَ العَمَلُ عَلى تَحْقيقِ راحَتي. إنَّ كاثْرين سَبَّبَتْ آلامي مُنْذُ حَوالَى عِشْرينَ سَنَةً. ولٰكِنّي، أَمْسِ، عَرَفْتُ الرّاحَةَ. لَيْلَةَ دَفْنِها، مُنْذُ عِشْرينَ عامًا، أَحَذْتُ

مِعْوَلًا ونَبَشْتُ قَبْرَها، وكُنْتُ عَلى وَشْكِ فَتْحِ تابوتِها، لٰكِنّي سَمِعْتُ صَوْتَ تَنَهُّدٍ وَرائي، وشَعَرْتُ بِنَفَسٍ دافِئٍ. فَتَأَكَّدْتُ أَنَّ كاثي لَمْ تَكُنْ في قَبْرِها إِنَّما قُرْبي عَلى الأَرْضِ تَهيمُ في تِلْكَ المُروجِ الَّتي طالَما أَحَبَّتْها - كُنْتُ دائِمًا أُحِسُّ بِوُجودِها وأَكادُ أَراها، ولٰكِنّي لَمْ أَرَها يَقينًا، وهٰذا ما سَبَّبَ لي القَلَقَ والعَذابَ.»

رُفِعَ الكابوسُ عَنْ نَفْسِ إيلين عِنْدَما تَوَقَّفَ هيثْكْليف عَنِ الكَلامِ لَدى نُزولِ كاثي. وقَبْلَ أَنْ يَصْطَحِبَها إِلى مُرْتَفَعاتِ وذَرِنْغ أَصْدَرَ تَعْليماتِهِ لِإيلين بِالبَقاءِ في ثْراش غرانْج وعَدَمِ الاتِّصالِ بِها.

الأَرْمَلَةُ الَّتي لَمْ تَرِثْ

وَصَلَتْ كاثي إِلى مُرْتَفَعاتِ وذَرِنْغ، ووَجَدَتْ لِنْتون في حالَةٍ يُرْثى لَها. فَاعْتَنَتْ بِهِ خَيْرَ عِنايَةٍ. لٰكِنَّ حَياتَهُ لَمْ تَطُلْ أَكْثَرَ مِنْ أُسْبوعٍ واحِدٍ بَعْدَ رُجوعِها. بَقِيَتْ كاثْرين، بَعْدَ دَفْنِ زَوْجِها، مُلازِمَةً غُرْفَتَها وقَدْ رانَ عَلَيْها الحُزْنُ والأَسى.

بَعْدَ أُسْبوعَيْنِ، قَطَعَ هيثْكْليف عَلَيْها وَحْدَتَها، لا لِيُواسِيَها وإِنَّما لِيُرِيَها وَصِيَّةَ لِنْتون «لَقَدْ تَرَكَ لِنْتون أَمْوالَهُ وأَمْوالَ زَوْجَتِهِ لِوالِدِهِ هيثْكْليف!» وهٰذا التَّدْبيرُ أَمْلاهُ عَلَيْهِ والِدُهُ خِلالَ غِيابِ زَوْجَتِهِ عِنْدَما ذَهَبَتْ لِرُؤْيَةِ والِدِها وهُوَ عَلى فِراشِ المَوْتِ. ولِأَنَّ لِنْتون كانَ قاصِرًا ولا يَحِقُّ لَهُ التَّدَخُّلُ بِأَمْرِ الأَرْضِ، فَإِنَّ هيثْكْليف وَضَعَ يَدَهُ عَلَيْها بِحَقِّ وِراثَتِهِ لِزَوْجَتِهِ إيزابيلّا. كانَتْ كاثْرين مِسْكينَةً بِلا نَصيرٍ ولا مالٍ، فَلَمْ تَسْتَطِعْ أَنْ تَنْقُضَ كُلَّ هٰذِهِ التَّدابيرِ.

لَمْ تُغادِرْ كاثْرين غُرْفَتَها إِلّا عِنْدَما عَضَّها البَرْدُ، فَنَزَلَتْ لِتَتَمَتَّعَ بِدِفْءِ النّارِ. لَمْ يَكُنْ هيثْكْليف هُناكَ، ولَمْ يَهْتَمَّ بِها جوزِف وزيلّا. أَمّا هيرْتون فَقَدْ أَظْهَرَ بَعْضَ الاهْتِمامِ وأَخَذَ يُراقِبُها وهِيَ تَخْتارُ كُتُبًا لِلقِراءَةِ. ثُمَّ طَلَبَ مِنْها أَنْ تَقْرَأَ لَهُمْ، فَصَرَخَتْ غاضِبَةً: «لَنْ أَقْرَأَ لَكُمْ. لا، لَنْ أُقَدِّمَ لِأَيٍّ مِنْكُمْ خِدْمَةً. فَطالَما تَرَكْتُموني وأَنا بِحاجَةٍ إِلَيْكُمْ.»

السَّيِّد لوكْوُد يُكْمِلُ رِوايَةَ القِصَّة

بَعْدَ أَنِ اطَّلَعْتُ عَلى ما آلَتْ إِلَيْهِ تِلْكَ القِصَّةُ، قَرَّرْتُ الابْتِعادَ عَنْ تِلْكَ المِنْطَقَةِ الَّتي أَثَّرَتْ عَلَيَّ بِمُناخِها القاسي وأَحْداثِها المُرَوِّعَةِ. بِذَلِكَ تَوَجَّهْتُ إِلى لَنْدن في كانون الثّاني (يناير) عامَ ١٨٠٢ طَلَبًا لِلرّاحَةِ، ووَعَدْتُ إيلين بِأَنّي سَأَعودُ بَعْدَ مُدَّةٍ لِأَسْتَأْنِفَ إِقامَتي في ثراش غرانْج، وكُنْتُ مُتَأَكِّدًا مِنْ أَنَّها سَتُطْلِعُني عَلى ما سَيَجِدُّ مِنْ أَحْداثٍ في مُرْتَفَعاتِ وِدرِنْغ.

عُدْتُ مِنْ لَنْدن في شَهْرِ أَيْلولَ (سبتمبر). ولَمّا وَصَلْتُ ثراش غرانْج، فوجِئْتُ بِأَنَّ إيلين دين لَمْ تَكُنْ هُناكَ. وقَدْ أَخْبَرَتْني مُدَبِّرَةُ المَنْزِلِ الجَديدَةُ بِأَنَّ السَّيِّدَةَ إيلين دين قَدْ عادَتْ إِلى مُرْتَفَعاتِ وِدرِنْغ لِلعِنايَةِ بِكاثي وهيرْتون. بَعْدَ أَنْ وَضَعْتُ حَقائِبي تَرَكْتُ مُدَبِّرَةَ المَنْزِلِ مُنْهَمِكَةً في تَوْضيبِ غُرْفَتي، وسِرْتُ عَبْرَ المُروجِ مُتَوَجِّهًا إِلى مُرْتَفَعاتِ وِدرِنْغ لِأُقابِلَ السَّيِّدَ هيثْكْلِف وأَدْفَعَ لَهُ بَدَلَ الإِيجار.

ما إِنْ رَأَتْني إيلين دين حَتّى هُرِعَتْ إِلَيَّ ورَحَّبَتْ بي بِحَرارَةٍ: «أَهْلًا بِكَ يا سَيِّدْ لوكْوُد. لِماذا لَمْ تُخْبِرْنا مُسْبَقًا بِقُدومِكَ؟ عَسى أَنْ تَكونَ قَدْ تَعافَيْتَ.»

الحَمْدُ للهِ يا إيلين، إِنّي بِخَيْرٍ. لَقَدْ مَرَرْتُ عَلى ثراش غرانْج، وجِئْتُ إِلى هُنا لِأُسَدِّدَ حِسابَ الإِيجارِ لِلسَّيِّدِ هيثْكْلِف.

السَّيِّدُ هيثْكْلِف! أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّهُ قَدْ تُوُفِّيَ؟ لَقَدْ مَرَرْنا في فَتْرَةٍ عَصيبَةٍ! سَأُخْبِرُكَ بِكُلِّ ما حَدَثَ بَعْدَ رَحيلِكَ في كانونَ الثّاني (يناير).

أَجَلْ أَجَلْ. لَقَدْ أَخْبَرْتِني، قَبْلَ أَنْ أُغادِرَ، عَنْ مَوْتِ لِنْتون وعَنْ مُحاوَلاتِ هيرْتون لِلتَّقَرُّبِ مِنْ كاثْرين وصَدِّها لَهُ.

مِسْكينَةٌ كاثْرين! لَقَدْ كانَتْ دائِمَةَ الغَضَبِ ثائِرَةً في وَجْهِ الجَميع

ثُمَّ أَخَذَتْ إيلين تُخْبِرُني بَقِيَّةَ القِصَّةِ الَّتي دَوَّنْتُها بِدِقَّةٍ:

بَعْدَ فَتْرَةٍ، حاوَلَتْ كاثْرين أَنْ تَخْرُجَ مِنْ عُزْلَتِها، فَأَخَذَتْ تُسَلّي نَفْسَها بِمُساعَدَةِ إيلين في عَمَلِ المَطْبَخِ. لَكِنَّها كانَتْ تَتَشاجَرُ مَعَ العَجوزِ جوزف، وتَقْسو عَلى هيرْتون فَتَهْزَأُ بِهِ وهُوَ يُحاوِلُ تَعَلُّمَ القِراءَةِ. ولَمّا نَبَّهَتْها إيلين إِلى أَنَّ هيرْتون



المِسْكينَ لا يَسْتَحِقُّ تِلْكَ المُعامَلَةَ القاسِيَةَ، غَيَّرَتْ مَوْقِفَها وحاوَلَتْ مُساعَدَتَهُ في دُروسِهِ، لٰكِنَّهُ رَفَضَ قَبولَ مُساعَدَتِها.

قالَتْ لَهُ مَرَّةً: «هيرْتون، أَنْتَ ابْنُ خالي. فَلِمَ لا تُكَلِّمُني، وَلِمَ لا تَدَعُني آخُذُ بِيَدِكَ؟»

- اُتْرُكيني وشَأْني. أَنْتِ مُتَعَجْرِفَةٌ ومُتَكَبِّرَةٌ، وتَسْخَرينَ بي دائِمًا. أنا مُتَأَكِّدٌ مِنْ أَنَّكِ تَكْرَهينَني.

- أنا لا أَكْرَهُكَ. إِنَّما أَنْتَ تَكْرَهُني كَما يَكْرَهُني هيثْكْليف.

- كَيْفَ تَتَّهِمينَني بِذٰلِكَ، وأَنا في كُلِّ أَحاديثي مَعَ هيثْكْليف أُدافِعُ عَنْكِ وأُثيرُ غَضَبَهُ!

فوجِئَتْ كاثي بِهٰذا التَّصْريحِ، وأَطْرَقَتْ قَليلًا، ثُمَّ قالَتْ وقَدْ خَفَّتْ حِدَّةُ لَهْجَتِها. «ما كُنْتُ أَدْري أَنَّكَ تَقِفُ إلى جانِبي. إِنّي مُتَأَسِّفَةٌ لِأَنّي شَكَكْتُ بِمَوْقِفِكَ.» ومَدَّتْ يَدَها لِهيرْتون لٰكِنَّهُ تَجاهَلَها. فَدَنَتْ مِنْهُ على مَهَلٍ وطَبَعَتْ قُبْلَةً على خَدِّهِ وغادَرَتِ الغُرْفَةَ.



في صباح ذلك اليوم نفسه انتقت كاثي كتابًا مُسليًا ولفّته بورقة بيضاء، ثمّ طلبت من إيلين تسليمه لهيرتون وإخباره بأنّها مُستعدّة لمراقبته وعدم الهزء به.

وهكذا أخذ هيرتون، ولو ببطء، يثق بحسن نوايا كاثي، ويتقبّل اهتمامها به ومساعدتها له. وقد نمت بينهما صداقة تحكمها الثقة وتسودها الحنان، والحقيقة أنّ الفضل الأكبر في هذا الودّ المتبادل يعود إلى إصرار كاثي وصبرها وعطفها.

وَلَم يَذْهَبْ جَهْدُ كاثي سُدًى إِذْ تَغَيَّرَ هيرْتون كُلِّيًّا في مَوْقِفِهِ مِنْها وحَتّى في طَريقَةِ تَصَرُّفِهِ وكَلامِهِ.

كانَ هيثْكْلِف يُراقِبُهُما بِاهْتِمامٍ في تِلْكَ الفَتْرَةِ، ولَمْ يُعْجِبْهُ هٰذا التَّقارُبُ، فَأَخَذَ يَصُبُّ غَضَبَهُ عَلى كاثي، لٰكِنَّها كانَتْ تَتَصَدّى لَهُ. قالَتْ لَهُ يَوْمًا: «أَنْتَ إِنْسانٌ شِرّيرٌ يا هيثْكْلِف! لَقَدْ حَرَمْتَ هيرْتون مِنْ حُقوقِهِ وحَوَّلْتَهُ إِلى عامِلٍ في المَزْرَعَةِ. بِالإِضافَةِ إِلى ذٰلِكَ، أَخَذْتَ مالي وسَلَبْتَني أَرْضي.» هَجَمَ هيثْكْلِف نَحْوَها، كَأَنَّهُ يُريدُ ضَرْبَها، فَصاحَتْ: «حَذارِ. إِذا ضَرَبْتَني فَإِنَّ هيرْتون سَيَضْرِبُكَ. لا تَنْسَ أَنَّهُ قَدْ أَصْبَحَ قَوِيًّا مِثْلَكَ.» فَما كانَ مِنْ هيثْكْلِف الثّائِرِ إِلّا أَنْ أَمْسَكَها بِشَعْرِها، وبَدا أَنَّهُ سَيُمَزِّقُها إِرْبًا إِرْبًا، لٰكِنَّهُ تَرَكَها فَجْأَةً وقالَ: «إِيّاكِ أَنْ تُثيري غَضَبي بَعْدَ الآنَ وإِلّا قَتَلْتُكِ!» ثُمَّ انْسَحَبَ خارِجًا وقَدْ خَفَّتْ حِدَّةُ حَنَقِهِ، وهُوَ كَالمَشْدوهِ.

في مَساءِ ذٰلِكَ اليَوْمِ نَفْسِهِ جاءَ هيثْكْلِف إِلى إيلين وخاطَبَها قائِلًا: «لَقَدْ تَغَيَّرْتُ كُلِّيًّا يا إيلين. لَمْ أَعُدْ أَرى لِحَياتي مَعْنًى. هَلْ لاحَظْتِ شَبَهَ كُلٍّ مِنْ كاثي وهيرْتون بِحَبيبَتي كاثْرين؟ فَعَيْناها اللَّتانِ تَشْكُواني أَراهُما في عَيْنَيْ كاثي وعَيْنَيْ هيرْتون. لَقَدْ كُنْتُ مُصَمِّمًا عَلى الثَّأْرِ، لٰكِنَّني الآنَ لا أَجِدُ لَذَّةً فيهِ. إِنَّني في هٰذِهِ الأَيّامِ أَجِدُ صورَةَ كاثْرين أَمامي وأُحِسُّ بِروحِها حَوْلي. لَيْسَ لي اليَوْمَ سِوى أُمْنِيَةٍ واحِدَةٍ هِيَ أَنْ أَنْضَمَّ إِلَيْها.»

هيثْكْلِف يُحَقِّقُ أُمْنِيَتَهُ

أَثارَ هٰذا التَّحَوُّلُ قَلَقَ إيلين، فَأَخَذَتْ تُراقِبُ هيثْكْلِف بِانْتِباهٍ شَديدٍ. لاحَظَتْ أَنَّهُ كانَ يَخْرُجُ كُلَّ لَيْلَةٍ وَحْدَهُ ويَهيمُ في المُروجِ، مَهْما كانَتْ حالَةُ الطَّقْسِ.

قَرَّرَتْ يَوْمًا أَنْ تُواجِهَهُ بِسُؤالٍ صَريحٍ: «أَيْنَ تَذْهَبُ كُلَّ لَيْلَةٍ يا سَيِّدُ هيثْكْلِف؟» فَأَجابَها: «البارِحَةَ كِدْتُ أَصِلُ إِلى جَهَنَّمَ. أَمّا اليَوْمَ فَإِنّي عَلى مَشارِفِ السَّماءِ. أُتْرُكيني الآنَ يا إيلين. إِنّي أَعْرِفُ ما هُوَ مَطْلوبٌ مِنّي.»

ظَلَّ هيثكْلِف أيّامًا عَديدَةً مُنْقَطِعًا عَنِ الطَّعامِ. وفي كُلِّ لَيْلَةٍ، إنْ لَمْ يَكُنْ هائِمًا في الخارِجِ، كانَ صَوْتُهُ يَتَرَدَّدُ في أَرْجاءِ المَنْزِلِ وهُوَ يَتَحَدَّثُ وَحْدَهُ ويَئِنُّ. وقَدْ سَمِعَتْ إيلين اسْمَ كاثْرين يَتَرَدَّدُ عَلى لِسانِهِ مِرارًا. وأخيرًا، نادى إيلين في صَباحِ أَحَدِ الأيّامِ، فجاءَتْ ورَأَتْهُ سَقيمًا شاحِبًا. قالَ: «آخِرُ ما أَطْلُبُهُ مِنْكِ يا إيلين أَرْجوكِ، تأَكَّدي مِنْ تَنْفيذِ تَعْليماتي. إدْفِنوني في المَدْفَنِ في المَساءِ. أَنْتِ وهيرْتون فقَطْ يُمْكِنُكُما مُرافَقَتي لِلتَّأَكُّدِ مِنْ قِيامِ الحَفّارِ بِما طَلَبْتُهُ مِنْهُ بِخُصوصِ تابوتي وتابوتِ كاثْرين. لا ضَرورَةَ لِوُجودِ رَجُلِ دينٍ ولا لِقَوْلِ أَيِّ صَلاةٍ، فَإنَّني سَأَكونُ قَدْ وَصَلْتُ إلى سَمائي الّتي أُريدُ.» كانَتْ إيلين تُصْغي بِكُلِّ اهْتِمامٍ وانْتِباهٍ، وقَدْ تأَثَّرَتْ بِهٰذا الطَّلَبِ الغَريبِ فَلَمْ تَمْلِكْ إلّا أنْ تَهُزَّ رَأْسَها عَلامَةَ المُوافَقَةِ.

كانَتْ تِلْكَ اللَّيْلَةُ عاصِفَةً ماطِرَةً، وفي الصَّباحِ لاحَظَتْ إيلين أَنَّ النّافِذَةَ مَفْتوحَةٌ في غُرْفَةِ هيثكْلِف. فَصَعِدَتْ إلى الغُرْفَةِ وفَتَحَتِ البابَ بِمِفْتاحِها الخاصِّ. أزاحَتْ سِتارَةَ السَّريرِ لِلْوُصولِ إلى الشُّبّاكِ وإغْلاقِهِ. لٰكِنَّها تَراجَعَتْ لَمّا رَأَتْ هيثكْلِف مُمَدَّدًا عَلى الفِراشِ جُثَّةً بِلا حَراكٍ وقَدْ تَبَلَّلَ بِماءِ المَطَرِ.

تَمَّ دَفْنُ هيثكْلِف في مَساءِ اليَوْمِ نَفْسِهِ، تَمامًا كَما أَوْصى. وقَدْ نَسِيَ هيرْتون الطَّيِّبُ كُلَّ حِقْدِهِ السّابِقِ عَلى هيثكْلِف فَوَقَفَ، والدُّموعُ تَنْهَمِرُ مِنْ عَيْنَيْهِ، في تِلْكَ الزّاوِيَةِ البَعيدَةِ مِنْ مَدْفَنِ القَرْيَةِ حَيْثُ أُقيمَتْ ثَلاثَةُ قُبورٍ مُتَجاوِرَةٍ.

ما زالَ أَبْناءُ المِنْطَقَةِ، حَتّى اليَوْمِ، يُؤَكِّدونَ أَنَّ هيثكْلِف يَهيمُ في تِلْكَ المُروجِ، ويُقْسِمُ بَعْضُهُمْ أَنَّهُ رَآهُ قُرْبَ الكَنيسَةِ وفي الحُقولِ وفي مُرْتَفَعاتِ وذِرِنْغ، أَحْيانًا وَحْدَهُ وأَحْيانًا بِرِفْقَةِ امْرَأَةٍ. هٰذِهِ هِيَ السَّماءُ الّتي كانَ هيثكْلِف يَنْشُدُها!

بِوَفاةِ هيثكْلِف، بَعْدَ لِنْتون، وَرِثَتْ كاثْرين أَمْلاكَ مُرْتَفَعاتِ وذِرِنْغ وثْراش غرانْج، وحَرَصَتْ عَلى إعْطاءِ الحَقِّ لِأَصْحابِهِ فَسَعَتْ لإعادَةِ أَرْضِ هيرْتون وأَمْلاكِهِ إلَيْهِ. وقَدْ قَرَّرَتْ إيلين، بِدافِعِ الواجِبِ والإخْلاصِ، البَقاءَ في مُرْتَفَعاتِ وذِرِنْغ لِرِعايَةِ شُؤونِ المَنْزِلِ والاهْتِمامِ بِكاثي وهيرْتون.

الخاتِمَة بِقَلَمِ السَّيِّد لوكْوُد

بَعْدَ أَنْ أَطْلَعَتْني إيلين عَلى آخِرِ تَطَوُّراتِ تِلْكَ القِصَّةِ الغَريبَةِ، دَفَعْتُ لَها نَفَقَةَ حِسابِ الإيجارِ ولَمْ أَرَ كاثي وهيرْتون. لَقَدْ أَمْضَيْتُ لَيْلَةً واحِدَةً في ثْراش غرانْج وغادَرْتُ إلى لَنْدَن. أَمْضَيْتُ شَهْرَيْنِ وتَفاصيلُ تِلْكَ الأَحْداثِ العَجيبَةِ لا تُفارِقُ مُخَيِّلَتي. ثُمَّ سافَرْتُ شَمالًا لِزِيارَةِ بَعْضِ أَصْدِقائي، فَقَرَّرْتُ أَنْ أُعَرِّجَ عَلى مُرْتَفَعاتِ وذِرِنْغ وثْراش غرانْج لِأَطَّلِعَ عَلى آخِرِ ما آلَ إلَيْهِ الوَضْعُ هُناكَ.



لَقَدْ سُرِرْتُ كَثيرًا لِقُدومي بِتِلْكَ الزِّيارَة لأَنّي وَجَدْتُ أَنّ الأُمورَ قَدْ عادَتْ إِلى نِصابِها. فَقَدْ تَبَدَّدَتْ غُيومُ الكَآبَةِ والحِقْدِ الّتي عاشَ هيرْتون وكاثي في ظِلِّها، وسادَ جَوٌّ مِنَ السَّعادَةِ والأُلْفَةِ، إِذْ وَجَدَ كُلٌّ مِنْهُما العَزاءَ والحَنانَ في رِفْقَةِ الآخَر. وكانَ هيرْتون الطَّيِّبُ يَتَجاوَبُ بِإِخْلاصٍ مَعَ عَطْفِ كاثي ومَحَبَّتِها ورَغْبَتِها في مُساعَدَتِهِ، وأَصْبَحَتِ الحَياةُ في مُرْتَفَعاتِ وذِرِنْغ حَياةً عائِلِيَّةً هادِئَةً.

وسَرَّني أَنْ عَلِمْتُ أَنَّ كاثي وهيرْتون قَرَّرا أَنْ يَعْقِدا قِرانَهُما في كانون الثّاني (يناير) ١٨٠٣ وأَنْ يَنْتَقِلا إِلى ثراش غرانْج لِيُقيما في ذلِكَ المَنْزِلِ الواسِعِ المُريحِ بَعيدًا عَنِ الذِّكْرَياتِ الأَليمَةِ الّتي تَسْكُنُ مُرْتَفَعاتِ وذِرِنْغ. وقَدِ اسْتَطاعَ الشّابّانِ أَنْ يُقْنِعا نيلي بِمُرافَقَتِهِما والعَيْشِ مَعَهُما.

وهٰكَذا حَدَثَ ما يُشْبِهُ المُعْجِزَةَ ورَفْرَفَتْ روحُ الخَيْرِ والمَحَبَّةِ والوِئامِ عَلى تِلْكَ التِّلالِ والمُروجِ الّتي كانَتْ قَدْ شَهِدَتْ، في السَّنَواتِ السّابِقَةِ، أَبْغَضَ مَظاهِرِ الكَراهِيَةِ والقَسْوَةِ.





إميلي برونْتي (١٨١٨-١٨٤٨)

وُلِدَتْ إميلي برونْتي سَنَةَ ١٨١٨. والِدُها باتْريك برونْتي، قِسّيسٌ إيرلَنْدِيُّ الأَصْلِ، عاشَ في مِنْطَقَةِ يوركْشِر الإنكليزِيَّةِ حَيْثُ كانَ - مُعْظَمَ حَياتِهِ - كاهِنًا لِقَرْيَةِ هاورْث. تُوُفِّيَتْ زَوْجَتُهُ سَنَةَ ١٨٢١ تارِكَةً سِتَّةَ أَوْلادٍ في سِنِّ الطُّفولَةِ: خَمْسِ بَناتٍ وشَقيقِهِنَّ الأَصْغَرِ برانْول. سَنَةَ ١٨٢٥ تُوُفِّيَتِ الابْنَتانِ الكُبْرَيانِ، مارِيّا واليزابث، بِداء السِّلِّ، وهُما دونَ العاشِرَةِ.

أَحْرَزَتْ إميلي برونْتي وشَقيقَتاها شارْلوت وآن مَكانَةً مَرْموقَةً في عالَمِ الرِّوايَةِ إلى جانِبِ نَظْمِ الشِّعْرِ. كانَتْ إميلي - كَجَميعِ أَفْرادِ العائِلَةِ مَوْهوبَةً، لٰكِنَّها تَأَثَّرَتْ بِأَجْواءِ العُزْلَةِ القاتِمَةِ الَّتي

سَيْطَرَتْ عَلى تِلْكَ المِنْطَقَةِ النّائِيَةِ مِنْ يُورْكْشِر. وبِالمُقابِلِ، كانَتْ صاحِبَةَ خَيالٍ خَصِبٍ بَعيدِ الغَوْرِ يَظْهَرُ أَثَرُهُ جَلِيًّا في ما خَطَّهُ قَلَمُها.

ماتَتْ إميلي برونْتي عامَ ١٨٤٨، بِداءِ السِّلِّ، قَبْلَ أَنْ تَتَجاوَزَ الثَّلاثينَ، وذٰلِكَ بَعْدَ مُرورِ ثَلاثَةِ أَشْهُرٍ عَلى وَفاةِ شَقيقِها برانْول وقَبْلَ بِضْعَةِ أَشْهُرٍ مِنْ مَوْتِ شَقيقَتِها الصُّغْرى آن.

تَقومُ شُهْرَةُ إميلي برونْتي عَلى رِوايَتِها الرّائِعَةِ «مُرْتَفَعات وذِرِنْغ» [Wuthering Heights] الّتي نُشِرَتْ عامَ ١٨٤٧، وهِيَ إِحْدى أَغْرَبِ القِصَصِ في الأَدَبِ الإِنْكْليزِيِّ وأَخْصَبِها خَيالًا. وتُعَدُّ أَصْدَقَ ما يُعَبِّرُ عَنْ ذٰلِكَ التَّناقُضِ المُحَيِّرِ في طَبيعَةِ إِنْكْلترا، وبِخاصَّةٍ في مِنْطَقَةِ يُورْكْشِر، حَيْثُ يَمْتَزِجُ الجَمالُ والسُّكونُ بِالكَآبَةِ والوَحْشَةِ فَوْقَ مُروجٍ رَطْبَةٍ وتِلالٍ ضَبابِيَّةٍ، كَما تَمْتَزِجُ في نُفوسِ أَبْناءِ تِلْكَ المِنْطَقَةِ شَبَكَةٌ مُعَقَّدَةٌ مِنَ المَشاعِرِ والأَهْواءِ.



كتب الفراشة - القصص العالميّة



كتب الفراشة

القصص العالميّة ٢٧. مُرتفعات وَذرِنغ

تَقومُ شُهرة **إميلي برونْتي** على رِوايَتِها **«مُرتَفَعات وذرِنْغ»**، وهي إحدى أغرَبِ القِصَص في الأَدَب الإنكليزيّ وأخصَبها خَيالًا.

كان لِمُرتَفعاتِ وذرِنغ صَدًى غَريبٌ لَدى ظُهورِها، فَقَدْ أَذْهَلَتْ إميلي برونْتي مُعاصِريها بِجَوِّ الكِتاب القاتِم ووَقائِعِهِ المُثيرَةِ. والحَقيقةُ أَنَّ الرِّوايَةَ تَأْسِرُ القارِئَ وتُحَرِّكُ عَواطِفَهُ مِنْ دونِ الإسْرافِ في تَفاصيلِ الأَحْداثِ الميلودرامِيَّةِ. إنَّها قِصَّةُ حُبٍّ مَأساوِيٍّ جارِفٍ حُبِكَتْ بِأُسْلوبٍ جذّابٍ.



مكتبة لبنان ناشرون



01C196829